

الفصل الثاني فَن الطرد

صورة الطرد قبل أبي نواس :

قال ابن جني في الخصائص :

(أصل موضع - طرد - في كلامهم التابع والاستمرار من ذلك طردت الطريدة إذا اتبعتها واستمرت بين يديك^(١)) وفي اللسان^(٢) : الطَرْدُ والطَرَدُ الإبعاد . وطردت الإبل طَرْداً وطَرْداً أي ضممتهما من نواحيها - والطريدة ما طردت من صيد وغيره ، وأيضاً ما طردت من وحش ونحوه .

والطرد ضرب من الصيد قديم عند العرب ، وتعتبر مهنة الصيد من أقدم المهن إن لم تكن أقدم مهنة زاولها الإنسان حيث كان يصارع الكائنات الأخرى فيما يدعوه «هوبز» بحرب الأحياء على الأحياء . ومع الزمن وبفضل ما يتميز به الإنسان من ذكاء وحيلة استطاع أن يطور أساليب صيده من فتك وهتك وتخدير وتسميم ونصب الشراك والشباك واحتفار الزبي أو الرمي بالسهم والبندق ، أو الختل بالغناء والصفير أو القاء الأوهات في حلق الحيوان أو بالنار ، أو استعمال الطير الجارح والسبع الضاري في القنص والصيد واثتناس بعضها لمنفعته وفائدته^(٣) .

وكان الصيد عند العرب في الجاهلية حرفة وهواية ، حرفة لغاية معيشية ينتفع بها الصائد ، وهواية للذة والمتعة للملوك والرؤساء ، ومهما يكن فقد كان الصيد صنو الغزو في كونه أحد مصادر الرزق ، في حالة ما إذا كان احترافاً ومهنة ، إلا أن الغزو كان أرقى وأسمى من مهنة الصيد .

(١) المزمهر للسيوطي ٢٢٦/١ .

(٢) لسان العرب (طرد) .

(٣) المصايد والمطارد لكشاجم ص ٤٦ ، والصيد والطرد عند العرب ص ٧ لمؤلف مجهول بتحقيق ممدوح حقي .

وعلى حين كان الجاهليون يفخرون بالغزو ويتباهون، وجدناهم يزرون على من يتخذ الصيد مهنةً وحرفة قال الجاحظ: (وقد وجدنا العرب يستذلون الصيد ويحقرون الصياد. ^(١)) ولذلك لم يكن السادة هم الذين يمتنون الصيد، إنما كانوا يمتنون الرئاسة أو الغزو أو التجارة يقول شوقي ضيف: (ويظهر إن صيد الوحش لم يكن هم شجعانهم وفرسانهم إنما كان هم فقرائهم ومعوذهم ولذلك كان يأتي في المرتبة الثانية من غزوهم ونهبهم للذين يدلان على بطولتهم واستبسالهم) ^(٢). وبالنظر إلى شدة اعتيادهم على الصيد، حرفة ومعاشاً للفقير المعوز، أو هواية ولذة للسادة والرؤساء، اعتقدوا أن أكل لحم الصيد، وخاصة الحيوانات المفترسة يزيد في الشجاعة ^(٣) وهكذا وجدنا أمراً القيس يصف شيخاً من بني ثعل يصيد ليكسب عيشه ^(٤):

رب رامٍ من بني ثعلٍ متلجٍ كَفَيْهِ في قَتْرِهِ ^(٥)
فهو لا تنمي رميُّهُ ^(٦) ماله لا عُذٌّ من نَفَرِهِ
مطعم للصيد ليس له غيرها كسبٌ على كِبَرِهِ

كذلك سمي أمرؤ القيس الصيد لذة:

كأنني لم أركبُ جواداً للذةٍ ولم اتبطنُ كاعباً ذاتَ خلخالٍ

كما قرنت الخرنق أخت طرفة في رثاء زوجها الفروسية بالصيد ^(٧) فليس هناك فرق في لذة الصيد بين صعلوك متشح بالاطمار. وملك جبار، فينكفي الصعلوك غانماً، وينكفي الملك غارماً، وهما مشتركان في لذة الظفر، ولا مؤونة على ذي المروءة أغلظ تكلفاً من آلات الصيد لأنها خيل وبزاة وفهود وكلاب ويحتاج في كل قليل إلى تجديد، ومن هنا قيل لا يشغف بالصيد إلا سَخَى ^(٨).

(١) الحيوان ٣٠٩/٢.

(٢) العصر الجاهلي ص ٨٠.

(٣) بلوغ الأرب ٣٢٣/٢ للألوسي.

(٤) ديوان امرئ القيس ص ١٢٣ بتحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم.

(٥) متلج كفيه في قتره: مدخل كفيه في القتر، وهي البيت الذي يكمن فيه الصائد للطرائد.

(٦) لا تنمي رميته: أي لا تنهض بالسهم وتغيب عنه وإنما تسقط في مكانها لإصابته مقتلها.

(٧) الصيد والطرْد في الشعر العربي ص ٥١ لعباس مصطفى الصالحي.

(٨) البيزرة، لأبي عبد الله الحسن بن الحسين، ص ٢٠.

وكان حمزة بن عبد المطلب عم الرسول ، عليه الصلاة والسلام صاحب صقور، وكان أعز فتى في قريش وحين علم بما نال الرسول من أذى على يد أبي جهل ذهب إليه حمزة وهو معلق قوسه في عنقه فعلا رأسه بقوسه فشججه ثم أسلم منصرفه^(١).

إلا أن الإغراق في الصيد ربما كان ملهارة للرجل الخطير عن شؤونه ومدعاة لمؤاخذته، فقد هجا طرفة بن العبد عمرو بن هند بأنه قد قسم دهره بين يوم للصيد ويوم يقف للناس ببابه :

قَسَمْتُ الدَّهْرَ فِي زَمَنِ رَحَى كَذَاكَ الْحَكْمُ يَقْصِدُ أَوْ يُجَوِّرُ^(٢)
لَنَا يَوْمٌ وَلِلْكَرْوَانِ يَوْمٌ تَطِيرُ الْبَائِسَاتُ وَلَا نَظِيرُ
فَأَمَّا يَوْمُهُنَّ فَيَوْمٌ نَحْسُ تُطَارِدُهُنَّ بِالْحَدْبِ الصَّقُورُ
وَأَمَّا يَوْمُنَا فَنَظْلُ رَكْبًا وَقُوفًا مَا نَحْلُ وَمَا نَسِيرُ

وهكذا كثر شعر الصيد عند الجاهليين واصفاً للمعارك التي كانت تدور بين القانصين والنعائم، وبين كلاب الصائدين وثيران الوحش وبقرة وحميره، حتى غدا هذا الشعر الوصفي أحد أركان القصيدة العربية القديمة.

وكانت الكلاب التي أحسنوا تدريبها إحدى وسائل الصيد عندهم، كما كانت لهم خبرة واسعة بالصقور منذ عهد قديم حتى عد الجاحظ الصقر عربياً^(٣) والبازي فارسياً، كما كانوا يصيدون بالفهود أيضاً، وكليب وائل أول من صاد بالفهد^(٤)، وكان عدي بن حاتم الطائي أحد ملوك العرب في الجاهلية صاحب كلاب وجوارح، وكذلك كان حمزة عم الرسول صاحب صقور، أما الكلاب فلعلها تكون في مقدمة وسائل الصيد وقد وضعوا لها، من شدة اهتمامهم بها، أنساباً خاصة السلوقية منها على غرار أنساب الخيل^(٥)، حتى إنهم دعوها بأسماء سموها بها مثل الكلبتين كساب وسخام اللتين قتلتها بقرة في إحدى معارك الصيد تحدث عنها لبید في معلقته^(٦). وكان فرسانهم يصيدون على صهوات الجياد مستخدمين آلاتهم القاطعة كالسيف والرمح والسهام والقسي والنبال . . !

أما عن الحيوانات المصيدة فكثيرة، وكلها تشكل عناصر من البيئة الطبيعية للبلاد

(١) سيرة ابن هشام ص ٣٠٢ . (٢) خزائن الأدب «للبغدادي» ١٥/٢ .

(٣) الحيوان ٦/٤٧٨ . (٤) الصيد والطرود عند العرب ص ٧١ .

(٥) المصايد والمطارد لكشاجم ص ١٣١ . (٦) شرح القصائد العشر للتبريزي ص ١٥٩ ، ط . الثالثة .

العربية الصحراوية من مثل الأرنب والظباء والوعول والثور والبقرة وحمار الوحش والماعز الجبلي والثعالب والذئاب والغزلان والنعام ومختلف الطيور كالقطا والحجل والجبلي والزرزير وكل ما هو منصوص عليه في أشعارهم . . !

على أن المهم أن نعرف كيف جاء شعر الصيد في العصر الجاهلي وما هي العلاقة التي تجمع بينه وبين شعر الطرد كظاهرة فنية مستقلة من بعد . . . !

الواقع أن شعر الصيد في هذا العصر المبكر من حياة الشعر العربي، يشتمل على كثير من الوقائع والمشاهد التي نلقاها في شعر الطرد، من تصوير للمعارك التي كانت تدور بين الصائد والمصيد أكان الصائد إنساناً أم حيواناً: طائراً جارحاً أم وحشاً ضارياً، وما كان يلبس تلك المعارك من وصف للصائد والمصيد على السواء، في مختلف أحوالهما، بين الكر والفر وبين الظفر والفشل، أو حتى في حالة ما إذا كان الكلب أو الثور هو المقتول ثم ما لذلك من علاقة مطية الصياد بالحيوان المطرود، إن كانت تلك المطية جواداً أم ناقة، ليصبح مشهد الصيد نفسه وسيلة إلى تصوير هذه المطية إشادةً بقوتها أو تعظيماً لشأنها من خلال الطريدة المقصودة وذلك حين يكون الحيوان المطرود ناجياً إذا شبه به الراحلة ومقتولاً إذا طورد بالجواد وكان هو المطية، مقتولاً في مقام الرثاء أو التعزي، وفي حالة المديح تكون الكلاب هي المقتولة. يقول الجاحظ: (ومن عادة الشعراء إذا كان الشعر مرثية أو موعظة أن تكون الكلاب التي تقتل بقر الوحش، وإذا كان الشعر مديحاً وقال كأن ناقتي بقرة من صفتها كذا إن تكون الكلاب هي المقتولة، ليس على أن ذلك، حكاية عن قصة بعينها، ولكن الثيران ربما جرحت الكلاب وربما قتلتها، وأما في أكثر ذلك فإنها تكون هي المصابة والكلاب هي السالمة والظافرة وصاحبها الغانم)^(١). ومثل هذا التقليد الفني لا شك ينم عن طول عهد بالممارسة، لهذا الفن الشعري، ولموضوع الصيد، وإن وراء هذا التقليد الذي استقر في ضمائر الشعراء على هذا النحو ثقافة من الأساطير والخرافات حول موضوع الصيد بجوارحه وصياده ومصيديه وآلاته . . مما لا يتسع المجال للإفاضة فيها الآن.

ومهما يكن من شيء فإننا نستطيع أن نضع أيدينا على نماذج من مشاهد الصيد، في هذا العصر المتقدم من تاريخ الشعر العربي تدنيه من موضوع الطرد في القرن الثاني للهجرة حين تحول هذا الشعر إلى فن مستقل، عن القصيدة العربية - استقلال فن الغزل والخمر وغيرهما من الفنون الشعرية الأخرى. من هذه النماذج ما جاء في معلقة امرئ القيس:

(١) الحيوان ٢/ ٢٠.

فَعَنَّ لَنَا سَرِبٌ كَأَنَّ نَعَاجَهُ عَذَارَى دُؤَارٍ^(١) فِي الْمُسَلَاءِ الْمُذَيَّلِ
فَادْبَرْنَ كَالْجَزَعِ^(٢) الْمَفْصَّلِ بَيْنَهُ يَجِيدُ مَعَمَّ فِي الْعَشِيرَةِ مُخَوِّلِ
فَالْحَقْنَا بِالْهَادِيَاتِ وَدُونَهُ جَوَاحِرُهَا فِي صَرَّةٍ لَمْ تَزِيلِ^(٣)
فَعَادَى عِدَاءً بَيْنَ ثَوْرٍ وَنَعْجَةٍ دِرَاكاً وَلَمْ يُنْضَحْ بِمَاءٍ فَيُغْسَلَ^(٤)
وَضَلَّ طَهَاةَ اللَّحْمِ مِنْ بَيْنِ مُنْضَجٍ صَفِيفَ شِوَاءٍ أَوْ قَدِيرٍ مُعْجَلٍ^(٥)

ويلاحظ قصر مقطع الصيد واختصاره إذا ما قيس ببقية مقاطع القصيدة. ثم قصر المدة الزمنية لمشهد الصيد وإغفال مكانه، وعدم التفصيل في الواقعة أو الحدث وإنما جاءت أبيات الصيد على قصرها وكأنها طلقة واحدة وسط حشد هائل من الأوصاف السريعة الباهرة لجواده في كره وفره وسرعة جريه، وغير ذلك من كريم صفاته ثم وصف لمشاهد الطبيعة الأخرى من برق وسحاب ومطر وما أحدثه السيل من آثار، وهكذا جاء الصيد وكأنه تبع لوصف الجواد، أو وسيلة إلى ذلك...! وعلى كل فالجواد هنا وسيلة إلى الصيد وليس هو الصائد، ولهذه الصلة الحميمة التي تربط الجواد بفارسه أغرق امرؤ القيس في وصف جواده حين جعله الغرض الأساسي أو قطب الرحى في القصيدة، وما خلافه تبع له كإضافات تزيده خصوبة وثراء في المعنى وفي الصورة...!

ومن ذلك أيضاً ما جاء في معلقة لبید من وصف بارع لأتان وحمارها وبقرة وحشية اخطأ الرماة أن يصيبوها بنبلهم فأطلقوا في أثرها جوارح الكلاب فنشبت بين الفريقين معركة شديدة انتهت بأن قتلت البقرة كلبتين هما «كساب وسخام» حيث يقول لبید:

حَتَّى إِذَا يَكُسُ الرَّمَاءُ وَأُرْسَلُوا غَضَفًا دَوَاجِنَ قَافِلَا أَعْصَامُهَا^(٦)
فَلَحِقْنَ وَاعْتَكُرَتْ لَهَا مَذْرِيَّةٌ كَالسَّمْهَرِيَّةِ حَدَّهَا وَتَمَامُهَا^(٧)

(١) صنم يدورون حوله.

(٢) الجزع المفصل: الخرز الذي يفصل بينه وبين اللؤلؤ.

(٣) الجواهر المتخلفات من الوحش، الصرة: الجماعة، لم تزيل: لم تتفرق.

(٤) العدا، الموالاتة في الجري.

(٥) الصفيف: المرقق من اللحم، القدير: الذي يطبخ في القدر.

(٦) الأعصام: قلائد من آدم تجعل في أعناق الكلاب.

(٧) اعتكرت: رجعت وعطفت - المدرية - القرون الحادة - السمهرية: الرماح.

لتذودَهُنَّ وأيقنَتْ إِنَّ لَمْ تَذُدْ أَنْ قَدْ أَحَمَّ مع الحُتُوفِ حِمَامُهَا^(١)
فتقصَدَتْ منها كَسَابٍ ففُضِرَجَتْ بدمٍ وَغُودَرٍ في المَكْرِ سُخَامُهَا^(٢)

والذي نحب أن نخلص إليه، إن شعر الصيد، قبل ظهور الطردية سواء في الجاهلية أم الإسلام لم يصل في فنه حد وصفه بشعر الطرد الذي ستلقى بواده وأوليائه في العصر الأموي وذلك مع اتساع أسباب اللهو واللذة والمتاع، ثم لتسع من بعد مجالاته في العصر العباسي، وإذن فسنحاول أن نلمس النقطة في العصر الإسلامي بعد أن أنعم الله على العرب بالإسلام، فجعلهم يتمرغون بالنعيم تمرغاً على حد ما يذكر معاوية بن أبي سفيان^(٣) أما عن فترة الصيد قبل ظهور الطرد فأقول ما يلاحظ عليها غناها بالصور والحركة، مما هيأ السبيل لتحولها إلى شعر الطرد قبل الزمن الذي حدده «بروكلمان»، لانهلال عمود الشعر في العصر العباسي ذلك أن شعر الصيد، في العصر الجاهلي قد بلغ حداً من النضوج الفني حتى ظهر داخل القصيدة القديمة كفن مستقل بشخصه، له جميع مقومات الفن المستقل هذا إلى شدة حيويته وجمال عرضه، وإنه يصدر في الأعم والأغلب عن حدث واقعي - لا مجرد فن شعري ولا كونه صورة شعرية تصدر عن صورة ذهنية، بل هناك توافق بين الخارج الموضوعي والواقع النفسي حتى إذا مستها العناصر الحضارية الجديدة في العصر الأموي نضجت الثمرة، وسرعان ما أتت أكلها شعراً طردياً ذا خصائص متميزة مصطنعاً لنفسه نظاماً وهيكلية تقوم عليها الطردية، هذا مع استمرار شعر الصيد على حاله الذي عهدناه عليه في العصر الجاهلي، وإذن فقد أصبح شعر الصيد في العصر الأموي يسير في تيارين، تيار مدفوع بقوة الاستمرارية منحدر من العصر الجاهلي ظل يصطنع أساليبه، ويؤدي نفس أغراضه، ومتخذاً نفس أدواته ووسائله إلى حد بعيد، أما الجانب المتطور منه فهو الذي تطور إلى شعر الطرد، وعلى هذا فلا حاجة بنا إلى تكرار ما قلناه عن شعر الصيد قبل الإسلام إنما غايتنا أن نصل طرديات أبي نواس بخط سير تطورها وما نحن وقد وضعنا أيدينا على بداياتها الأولية فإننا نريد أن نقف بعض الوقت عند الصلة التي شكلت جسر العبور، ما بين شعر الصيد، وبين طرديات القرن الثاني وقمتها ورأسها طرديات شاعرنا أبي نواس...

أما في العصر الإسلامي، فقد شهد شعر الصيد كما ذكرنا تحولاً كبيراً ذلك مع تحول صورة الحياة الاجتماعية الذي أدى بدوره إلى تحول كبير في الشعر العربي في صورته وفي مضمونه أو

(١) الحمام : الموت . واحم : حان .

(٢) تقصدت : قتلت من قولهم رماه فأقصده . (٣) تاريخ الطبري ٤/ ٢٤٧ .

موضوعه، وكان شعر الصيد أحد الفنون الشعرية التي لحق بها هذا التطور أو التحول، ليظهر بين الفنون المستحدثة، فن الطرد منبثقاً عن شعر الصيد، أو لنقل متطوراً بشعر الصيد نفسه الذي عرفناه عند الجاهلية إلى صورة أخرى تكون أكثر ملاءمة لمقتضيات حال الجماعة المرفهة المترفة الغنية، وهكذا فإن شعر الطرد ليس نتيجة لتطور وسائل الصيد أو رقيها أو اتساع تيار الصيد أو ضيقه، أو لأنه اتخذ دوراً جديداً في الحياة المعيشية أو الاجتماعية، لا، بل لأن الحياة الاجتماعية، هي التي تطورت بهذا النوع من الشعر بعد أن أصبح الصيد إحدى الوسائل الترفيهية كالغناء والشراب ولعب النرد والشطرنج وسباق الخيل، فعلى حين ظل الصيد في جانبه النفعي كمهنة وارتزاق في صورته الأولى، رأينا الصيد في جانبه الترفيهي أو جانب اللذة كما سماه امرؤ القيس، يتسع ويعظم شأنه ويتطور في آتة وعدده ووسائله بعدما غرق القوم في الحضارة وأصبحوا يتمرغون في نعيم الدنيا تمرغاً، كما يذكر معاوية، حتى وجدنا ابنه يزيد، وهو الخليفة أمير المؤمنين أول صياد شهير في الإسلام^(١)، فقد كان (كلفا بالصيد لا يزال لاهياً به، وكان يلبس كلاب الصيد الأساور والذهب، والجلال المنسوجة منه ويهب كل كلب عبداً يخدمه . . .)^(٢) كما كان مبتدعاً في الصيد يقال إنه أول من حمل الفهود على ظهور الخيل^(٣)، وإذن فالصيد نوعان رزق، ولذة، أو مهنة وهواية، وهكذا عرف العرب الصيد منذ جاهليتهم، وفي الإسلام، ومع ما يتكلفه صائد اللذة من نفقات باهظة، ميزوا أيضاً بين الطريقة التي يسلكها كل من الصائدين، صائد المهنة، وصائد اللذة، يقول كشاجم: (إن لذة الصيد إنما هي الطراد والمطالبة والظفر بعد الاراعه . . . والفرق بين الملك المتصيد والقانص المتكسب: إن الملك هو الذي يطارد بخيله وكرابه وجوارحه ويضجر الوحش ويؤذيها ولا يطلب غراتها، والمتعيش بالقنص هو الذي يغتال بشباكه وجائله ويخفي شخصه في الفترة والناموس . . . ويخفي صوته ويسكت نأتمته)^(٤).

وإذن فلا عجب أن يظهر الغناء بمكة والمدينة، كنوع من الترفيه الحضاري مع ظهور الاهتمام بالصيد كنوع من الترفيه أيضاً فالظواهر الاجتماعية المختلفة تتعاصر إذا توافرت لها الأسباب الواحدة. يقول المسعودي، والإشارة هنا إلى يزيد بن معاوية (وفي أيامه ظهر الغناء بمكة والمدينة واستعملت الملاهي وأظهر الناس شرب الشراب، وكان له قرد يكنى بأبي قيس يحضر مجلس منادمته ويطرح له متكأ . . . وعلى أبي قيس قباء الحرير الأحمر والأصفر مشهر . . .)^(٥).

(١) تاريخ العرب لفيليب حتي ٢٩٦/٢.

(٢) الفخري في الأدب السلطانية ص ٤٦. (٣) مروج الذهب ٧٧/٣.

(٤) المصايد والمطارد لكشاجم ص ١٥، ١٦. (٥) مروج الذهب للمسعودي ٧٧/٣.

على أن من جاء بعد يزيد من الخلفاء الأمويين لم يكونوا أقل كلفاً منه بالصيد، فهذا هشام بن عبد الملك من شدة شغفه بالصيد يعين قيماً لضواريه يؤدبها ويطيّبها ويسهر على راحتها، وكان يسمى صاحب صيد هشام بن عبد الملك وكان اسمه الغطريف بن قدامة الغساني الذي ظل ملازماً للوليد بن يزيد بعد هشام يسهر على ضواريه^(١) أيضاً، بل لقد بلغ ولع الوليد باللهو والضواري وهو ولي عهد إلى أن اضطر هشاماً عمه إلى الحد من غلوائه^(٢) كما هو معروف، ولم يكن الصيد مقصوراً على الخلفاء وحدهم بل كان يشاركهم في لذة الصيد الأمراء والوزراء والقادة والأثرياء، فهذا عبد الملك بن بشر بن مروان يقتني الفهود وبلغ ولعه بها حدّاً حمله على أن يستدعي شاعراً فحلاً من شعراء الطرد ليصفها له. في رواية عن الأصمعي أن عبد الملك هذا قال لأبي النجم العجلي صف لي فهودي هذه فوصفها له في أرجوزة تائية معروفة تعتبر من عيون شعر الطرد وفيها يقول^(٣):

إنا نزلنا خير منازل بين الحُمَيْرَاتِ المُبَارَكَاتِ
في لحم وحش وَحَبَارِيَاتٍ وإن أردنا الصيد ذا اللَّذَاتِ^(٤)
جاء مُطِيعاً لِمُطَاوَعَاتٍ عَلَّمْنَ أو قد كنَّ عَالِمَاتِ
فهي ضوار من مضريات تريك آماقاً مَخْطَطَاتِ
سُوداً على الأشداق سائلات تَلَوِي بأَذْنَابٍ مَوْقِفَاتِ

وكان أبو النجم هذا يجمع بين الرجز والقصيد، وهو عند بعض الدارسين (الرائد الأول لشعر الطرد، حيث عمل على استقلاله ووضع اللبنة الأولى في أسس بنائه)^(٥)، أما الشمردل بن شريك والمعاصر لجريير والفرزدق فيقول عنه صاحب الأغاني (صاحب قنص وصيد بالجوارح وله في الصقر والكلب أراجيز كثيرة)^(٦) وله أرجوزة أو طردية، كثيرة الشبه بأراجيز أبي نواس. يتصدى فيها الشاعر لنعت الصقر كما يصف وقت خروجه للصيد مبكراً مطبناً في الإشادة بدربه على الصيد وال مداومة عليه مع فراهة وشدة طلب بمخالب مذرية كأنها سكاكين قصاب، وذكاء فؤاد. وعنق مخضب. . .

(١) الصيد عند العرب ص ٣٦.

(٢) الطبري ٥٢٠/٥.

(٣) الأغاني ١٦٠/١٠، والشعر والشعراء ص ٥٨٨.

(٤) حباريات جمع حباري وهو طائر.

(٥) شعر الطرد إلى نهاية القرن الثالث الهجري لعبد الرحمن الباشا ص ١٤١.

(٦) الأغاني ٣٦١/١٣.

كما يذكر إنهم استطاعوا أن يصيدوا به ثمانين طريدة ما بين فحل حباري وأرانب . . !
ونكتفي بالإشارة إلى بعض أبيات هذه الطردية لنقارن بها طرديات أبي نواس ، وكيف إن أمثال
هذه الطردية تعتبر المقدمة الضرورية لفن الطردية عند أبي نواس ومعاصريه بل إنهم في عامة
طردياتهم لم يخرجوا عن هذا الرسم الذي رسمه شاعر العصر الإسلامي لفن الطرد:

قد اغتدى والصبح في حجابهِ والليل لم يأو إلى مآبهِ
وقد بدا أبلق من مُنجابهِ^(١) بتَوَجَّى^(٢) صاد في شبابهِ
مُعاود قد ذلّ في إصعابه قد خرّق الضّفار^(٣) من جذابه
وعرف الصوت الذي يُدعى به ولمعة المُلَمع^(٤) في أثوابهِ
فقلت للقيانص إذ أتى به قبل طلوع^(٥) الآل أو سرابهِ

والمهم أننا نواجه لأول مرة شعراً طردياً بكل معنى الكلمة وبكل امتيازاته فهو شعر، في معظمه
من بحر الرجز^(٦) ثم هو مستقل بموضوعه لا يشركه عدا موضوع الصيد موضوع آخر من غير مقدمة
طللية أو غزلية. أما سبب نظمه على بحر الرجز، كما يقول «نلينو» فإن الأصل فيه (كان بدوياً
ومضمونه أقرب إلى أحوال أهل الوبر منه إلى عيشة سكان المدن وأهل الحضر)^(٧) كما يلقانا في
آخر هذا العصر شاعر ثالث هو أبو نخيلة اشتهر بكثرة شعره الطردي وكان الغالب عليه الرجز. وكان
الوليد بن يزيد يحبه حباً شديداً ويقول ابن المعتز إنه علّم الوليد الشعر^(٨). كما يذكر عنه قوله: (وله
في الطرد أراجيز كثيرة مشهورة)^(٩). وقد أورد له ابن المعتز جملة من طردياته، من أشهرها أرجوزة
في طرد عشر نعائم^(١٠) يستهلها بقوله: «أنعت» كما فعل من بعد أبو نواس في كثير من طردياته كما
سنرى:

أنعت مهراً سبط القَرَاتِ ورداً طِمراً مُدمَج السَّراة^(١١)

(١) المنجاب: اسم مكان من أنجاب أي انكشف. (٢) التوجي: توج قرية بفارس تنسب إليها الصقور.

(٣) الضفار والضفر: نسج الشعر وغيره. (٤) الألامع: الإشارة أو التلويع باليد أو الثوب.

(٥) الآل: ما يكون ضحى كالماء بين السماء والأرض. (٦) تاريخ الأدب العربية لنلينو ص ١٩٢.

(٧) المصدر السابق نفسه ص ١٩٣. (٨) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٦٣.

(٩) المصدر السابق نفسه ص ٦٦. (١٠) المصدر السابق نفسه ص ٦٥.

(١١) القراءة: بمعنى الظهر، الطمر: الفرس الجواد، السراة: الظهر.

أما في العصر العباسي، فقد تعاظم شأن الصيد في جانبه الترفيهي ليتعاظم معه شعر الطرد وتتضح معالمه ويصبح فناً مستقلاً له مكانه المرموق بين الفنون الشعرية الأخرى. وقد أدى إلى تعاظم شأنه وتمادى الشعراء فيه وعلى رأسهم أبو نواس، إن الصيد كظاهرة ترفيهية، شأنها شأن كل ظاهرة تحدرت إلى هذا العصر من العصر الإسلامي لتتناولها الحضارة العباسية بعواملها الجديدة المؤثرة فتحور فيها وتغير حتى تسبغ عليها رونقها وبهاءها وكذلك كان الصيد، خاصة إنه كان للفرس المعروفين بحب الصيد منذ زمن قديم^(١) اليد الطولى في الحياة الاجتماعية في الدولة الجديدة بما أضفوه عليها من طابعهم وتقاليدهم، وهكذا وجدنا السفاح أول خليفة عباسي عظيم الإقبال على الصيد، متفائلاً ومتشائماً، أما أبو جعفر المنصور فبالرغم من جده ووقاره، فقد أحس بأنه من الصعب أن يقضي على شهوة الصيد عند الناس من حوله ومن يحيي بعده من الخلفاء والأمراء، لذلك، وحتى يجد لهم عذراً بين الناس، إذا فشا فيهم الصيد، وهو فاش لا محالة، عمد إلى صنيع طريف بأن ركب فرسه مشمراً عن ذيله وعلى يده باز، ومعه الربيع بن يونس، فعبر الجسر جيئةً وذهوباً ثم سأل الربيع ما يقول الناس في ركوب أمير المؤمنين على هذه الحال، قال: عجبوا منها، قال أبو جعفر: إنه كان لأمر المؤمنين في ذلك مذهب وهو إنه سيأتي من ابنائنا من يحب الصيد ويتبذل فيه فأحببت أن يكون مني ما رأيت فمتى فعل مثلي من بعدي، قال الناس: قد ركب المنصور على مثل هذه الصورة^(٢).

أما ابنه المهدي فتذكر المصادر القديمة إنه مات في رحلة صيد^(٣) ومن شغفه بالصيد تروى عنه الطرائف^(٤) وقد شغف بالصيد كل من جاء بعد المهدي من الخلفاء^(٥)، فقد كان الرشيد مولعاً بالصيد حتى إن نقفور أهدى إليه اثني عشر بازياً وأربعة أكلبة من كلاب الصيد^(٦) ويكفي أن نذكر أن أبا نواس افتتح إحدى مدائحه في الرشيد بذكر صفة الجارح، لما يعلمه من رأى الرشيد في الصيد^(٧).

أما الأمين، فقد كان (أشد انهماكاً في الصيد وأحرص عليه من كل من تقدمه. وأكثر طرد أبي

(١) الصيد عند العرب، ص ١١.

(٢) البيرة ص ٤٣ لأبي عبد الله الحسن بن الحسين من منشورات المجمع العلمي العربي بدمشق سنة ١٣٧٢ هـ.

(٣) تاريخ الطبري ١٦٩/٨.

(٤) المصايد والمطارد لكشاجم ص ١٦٦. (٥) المصدر السابق نفسه ص ٣ وما بعدها.

(٦) (٧) المصايد والمطارد ص ٥. (٦) الطبري ٣٢١/٨.

نواس معمول في جوارح محمد وضواربه . . حتى إنه أهمل شؤون الخلافة والدولة منصرفاً إلى لهوه ولذته ومنها الصيد، حتى في أثناء حصار بغداد^(١) . وكان غرامه في صيد السباع، كما كان له أخ شغف بصيد الخنازير فوقع مرة عن دابته ومات^(٢) . ولم يكن ولع الولاة بالصيد بأقل من ولع خلفائهم به، فهذا الفضل بن يحيى، ينقل عنه صاحب بريد خراسان وكان يتولاها الفضل إنه (تشاغل بالصيد واللذات عن النظر في أمور الرعية . . .)^(٣) .

أجل لقد عظم شأن الصيد في العصر العباسي لأنه كان جزءاً من مسرات القوم ولذاتهم، وكان اتقانه والإقبال عليه من المؤهلات المرشحة لمنادمة الملك. يقول الجاحظ: (ولندماء الملك وبطانته خلال يساوون فيها الملك ضرورة، ليس فيها نقص على الملك، ولا ضعة في الملك. منها: اللعب بالكرة، وطلب الصيد، والرمي في الأغراض، واللعب بالشطرنج وما أشبه ذلك)^(٤) أي إن الصيد، أصبح في هذا العصر دليلاً على تحضر من يزاوله وبالطبع ليس هو صيد الارتفاق والعيش، فهذا الضرب من الصيد كان محتقراً من العرب، إنما هو صيد الهواية واللذة والتسلية مثل تسليهم بسباق الخيل وسباق الحمام الزاجل ولعبة الصولجان^(٥) ومثل لعبة الكرج التي أغرم بها الأمين أياماً^(٦) غرام، ومنها المحادثة بين النديوك والكباش والكلاب وكان لولع الخلفاء العباسيين وكبار القوم حينئذ بالصيد واقتناء جوارحه وضواربه آثار واضحة في المجتمع العباسي حين راح الناس يقلدون الملوك والسادة فاستشرى الصيد حتى عم جميع الطبقات، فالصيد إذن من أهم وسائل التسلية لمرجعية أوقات الفراغ خارج المنزل^(٧). وكان الخلفاء يخرجون في مواكب حافلة ومعهم البزة والصقور والكلاب وهكذا كما كان الصيد ظاهرة اجتماعية، بدأت منذ العصر الجاهلي حتى عصر شاعرنا (القرن الثاني الهجري) فقد رافقتها ظاهرة أدبية شعرية، تمثلت في بدايتها بشعر الصيد الذي كان جزءاً من القصيدة القديمة حتى إذا تعقدت الحياة، وتطورت الظاهرة الاجتماعية (أعني الصيد) وجدنا شعر الصيد نفسه يتطور إلى ما سمي بشعر الطرد ثم ليتعاطف شأنه ويتسع مجاله ونكثرت نساذه. ويصبح فناً مستقلاً له خصائصه المميزة، وكان ذلك في العصر العباسي. شأن الكثير من الظواهر الشعرية الأخرى، كالغزل العفيف والغزل المصريح وكظاهرة البديع في

-
- (١) مروج الذهب ٣٠٦/٣ .
 (٢) الأعي ١٩٠/١٠ ط بغداد .
 (٣) مروج الذهب ٣/٢٧٧ .
 (٤) النج في خلاق الملوك ص ٨٠، ٨١ .
 (٥) الوزراء والكتب ص ٢٠٧، ومروج الذهب ٣/٢٧٩ .
 (٦) لعب العرب لأحمد كيمور ص ٥٥ .
 (٧) تاريخ الإسلام السياسي ٢/ ٤٢١-٤٢٢ .

الشعر. . . وإذن فإن نظام القصيدة القديمة، لم ينتظر العصر العباسي حتى ينحل على حد ما يزعم بروكلمان^(١) وإنما تم ذلك في العصر الإسلامي حين استقل الغزل باباً وحده، على أيدي شعراء الحجاز بتأثير الغناء، واستقل شعر الصيد، على صورة شعر الطرد، في وقت واحد تقريباً، ومن الأمور الجديرة بالملاحظة أن تعاضم الغناء كنوع من الترفيه في الحياة الاجتماعية كان معاصراً لتعاضم الصيد، كنوع من الترفيه أيضاً وذلك كان زمن يزيد بن معاوية. . . أو كما سبق أن قلنا تتعاصر الظواهر المختلفة إذا توافرت لها الأسباب الواحدة. . . !

- طرديات أبي نواس :

يشكل الطرد عند أبي نواس أحد أبواب شعره الهامة، وهو الفن التقليدي الثاني، بعد فن المديح من فنون أبي نواس التقليدية كما أنه، ربما كان يقف في مواجهة فني المجون والخمر، اللذين يشكلان قمة تجديده، من حيث أنه يمثل قمة الاتجاه التقليدي عنده، على أن لأبي نواس نفسه رأياً طريفاً في طرده، إذ وضعه في المكان الثاني بعد الخمر والغزل، حين سئل عن شعره، عن سليمان بن أبي سهل قال: (قلت لأبي نواس ما الذي استجيد من أجناس شعرك؟ فقال: أشعاري في الخمر لم يقل مثلها، وأشعاري في الغزل فوق أشعار الناس، وهما أجود شعري، إن لم يزاحم غزلي ما قلته في الطرد)^(٢).

وفي «الموشح» عن أبي علي البصير في مناظرة له مع أحمد بن أبي طاهر أنه قال: (الشعر بين المدح والهجاء وأبو نواس لا يحسنهما، وأجود شعره في الخمر والطرد. . .)^(٣) أي إنه فضل طرد أبي نواس على مديحه وهجائه، كما قرنه بفنه الأول وهو الخمر. . . ؟ ولقد جاء اتفاق أبي نواس فن الطرد، حتى أصبح شاعره الأول، بلا منازع عند كتابنا المحدثين، لمعرفته بالحيوان الصائد والمصيد، وهي خبرة اكتسبها من عيشه في الصحراء عاماً كريتاً كما ذكرنا في تاريخ حياته، ولذلك رأينا الجاحظ ينوه بهذه المعرفة باعتبارها الأساس الذي عليه قام تربيته في فن الطرد بقول الجاحظ:

(وأنا كتبت لك رجزه في هذا الباب لأنه كان عالماً راوية، وكان قد لعب بالكلاب زماناً وعرف منها ما لا تعرفه الأعراب، وذلك موجود في شعره، وصفات الكلاب مستقصاه في أراجيزه)^(٤) ثم إن اتصاله بالأمين، الذي شغف بالصيد شغفاً ألهاه عن تدبير شئون خلافته لا شك إنه يسر له

(١) تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ٩/٢. (٢) أخبار أبي نواس، لابن منظور، ٥٤/١.

(٣) الموشح للمرزباني ص ٤٣٤. (٤) الحيوان ٢٧/٢.

تعميق خبراته بالصيد وشؤونه وحيوانه حتى قيل إن أكثر طرده معمول في جوارح الأمين وضواريه^(١). ولكي نقف على مقدار أبي نواس في فن الطرد يكفي أن نقارن بينه وبين شعراء الطرد المعاصرين له أو القريبين العهد منه، كأبي النجم العجلي والشمردل بن شريك اليربوعي وأبي نخيلة، من السابقين عليه، وكعبد الصمد بن المعذل والرقاشي وأحمد بن زياد بن أبي كريمة من المعاصرين له، حتى يتضح لنا البون الشاسع الذي يفصل شاعرنا عن هؤلاء جميعاً؛ كثرة في الطرديات وتنوعاً في الموضوع وإتقاناً لفن الطرد نفسه. من أجل هذا كان طرد أبي نواس أول قمة تسلك عليها فن الطرد حتى بدا البناء شامخاً، فلأبي نواس، إذن (فضل التجويد والارتقاء بهذا الفن حتى أخذ من جاء بعده يقلدونه وينسجون على منواله)^(٢). هذا، وعدد طرديات أبي نواس مختلف فيه كثيراً، ففي ديوانه، برواية الصولي^(٣)، بلغ عددها سبعة وأربعين طردية، نص على سبع منها بأنها منحولة - كما نسب الجاحظ الطردية التي تبدأ بهذا البيت:

قد اغتدى والليل أحوى السدَّ والصبحُ في الظلِّماءِ ذو تَقْدَى^(٤)

إلى الفضل الرقاشي^(٥)، في حين ينقل الأصفهاني راوي ديوان أبي نواس (إن أبا نواس لم يقل من الأراجيز في الطرد إلا تسعاً وعشرين، وما زاد على ذلك فهو منحول)^(٦)، وفي خبر آخر مرفوع إلى إبراهيم بن محبوب، إن أبا نواس أملى دفترأ بخطه وتوقيعه (فيه نيف وسبعون أرجوزة في الطرد)^(٧) وخبر ثالث عن (رواة أبي نواس محمد بن حرب بن خلف وسليمان بن سخطة واليؤيؤ والجماز البصري وابن الداية البغدادي نخاس الرقيق وعلي بن أبي خلصة أن أبا نواس لم يقل في الطرد إلا تسعاً وعشرين أرجوزة وأربع قصائد فما زاد على هذا فهو منحول)^(٨). ثم يذيل الأصبهاني هذا الكلام بقوله: (فأما الأراجيز التي صحت له فهي . . .)^(٩). وقد بلغت جملتها ستاً وعشرين طردية، وأما القصائد فأربع ثم أرجوزتان قال عنهما الأصبهاني: (ليستا من الطرد وإنما لبس فيهما إذ أدخلهما في باب الطرد يصف في إحداهما . . . وفي ثانية درهماً^(١٠)).

(١) المصايد والمطارد لكشاجم ص ٥.

(٢) الصيد والطرد في الشعر العربي ص ٢٦٢.

(٣) ديوان أبي نواس برواية الصولي، تحقيق بهجت عبدالغفور الحديثي - بغداد سنة ١٩٨٠.

(٤) السد/ ما سد الأبصار بظلمته - الأحوى - الأسود. ذو تقدى: سير شديد، أي: يريد أن الصبح ينبثق في الليل ويسير فيه.

(٥) الحيوان ٤٧٢/٦. (٦) الديوان ١٧٧/٢ بتحقيق إيفالد فاغتر.

(٧) ديوان أبي نواس ١٧٦/٢، ١٧٧ بتحقيق فاغتر. (٨) المصدر السابق نفسه ١٧٩/٢.

أما في طبعة الغزالي والتي اعتمد فيها على روايتي الصولي والأصهاني فقد بلغ عدد الطرديات اثنين وخمسين طردية^(١) ولكن بعض الدارسين يذكر إن عدد طرديات أبي نواس تربو على خمسين وخمسين طردية. على أن أول ما نسجل من ملاحظات على هذه الطرديات خروج بعضها على بحر الرجز. وهي الطرديات الآتية:

الطردية ذات المطلع:

رَبِّمَا أَغْدُو مَعِيَ كَلْبِي طَالِباً لِلصَّيْدِ فِي صَحْبِي
من البحر المديد^٢
والطردية:

قَدْ اغْتَدَى وَالصَّبْحَ مَشْهُورُ قَدْ طَلَعَتْ مِنْهُ التَّبَاشِيرُ
من البحر السريع^٣
والطردية:

قَدْ كَادَ هَذَا الْفَخُّ أَنْ يَعْقِرَا وَانْحَرْفَ الْعَصْفُورُ أَنْ يَنْقُرَا
من البحر السريع^٤
والطردية:

قَدْ أَسْبَقَ الْقَارِيَةُ الْجُونَا مِنْ قَبْلِ تَثْوِيهِ الْمُنَادِينَا
من البحر السريع^٥

كما أدخلت تحت باب الطرد مقطوعة من الرجز قيل إنها في وصف الصقر وقيل إنها شيء آخر:

قَدْ أَغْتَدَى قَبْلَ مَدَادِ الْخَامِسِ بِضَرْمٍ يَنْفُضُ كَفَ الْلَامِسِ^(٦)

كما تلقانا من بين طردياته الأرجوزة التالية:

(١) ديوان أبي نواس ص ٦٢٤ وما بعدها - ط. الغزالي.

(٢) ديوان أبي نواس ص ٢٥٠ برواية الصولي ط. بغداد، و ص ٦٣٢ ط. الغزالي، و ٢٤٦/٢ بتحقيق إفالد فاجتر.

(٣) ديوان أبي نواس ص ٢٩٦ ط. بغداد، ص ٦٣٥ ط. الغزالي، و ٢٤٥/٢ بتحقيق فاجتر.

(٤) ديوان أبي نواس ص ٣٠١ ط. بغداد، و ص ٦٦١ ط. الغزالي و ص ٢٤٩/٣ بتحقيق فاجتر.

(٥) ديوان أبي نواس ص ٣٥١ ط. بغداد، ص ٦٧٠ ط. الغزالي و ٢٤١/٢ ط. فاجتر.

(٦) المصدر السابق نفسه ص ٣٢١ ط. بغداد، المصدر السابق ص ٦٦١ ط. الغزالي، و ٢٥٢/٢ ط. فاجتر.

ألم أبك رسماً مُقفرًا ودوراً تسمع للصُّعلِ به زميراً^(١)

وفي طبعة بغداد، برواية الصولي جاء قوله:

(قال أبو بكر: ليست هذه القصيدة له وقال يصف الدرهم وهو يرى أنه صقر وهذا مما ذكرنا إنه عماه ويذهب على الناس ولا يعرفونه. . . .)^(٢) وفي طبعة فاغتر أيضاً: (وقال يصف الدرهم ورواه الناس في صفة الصقر وهي مما عماه ورواها عنه إسحق بن خُليد أبو وائل رفيقُ أبي نواس^(٣)).

كما أن هناك طرديتين، ليستا من الطرد بمعناه المؤلف عندنا في شيء، وقد خالف فيهما أبو نواس معنى الطرد ولعلهما مقحمتان على ديوان الطرديات. وذلك حين وصف الديك الهندي في مناقرته لأقرانه من الديكة. وهما الطرديتان الأولى وتبدأ بهذا البيت^(٤):

أنعت ديكاً من ديوك الهندِ أحسن من طاووسِ قصر المهديِّ

والثانية تبدأ بهذا البيت^(٥):

أنعت ديكاً من ديوك الهندِ كريمٍ عَمٍّ وكريمٍ جدِّ

والمناظرة بين الديوك وهراش الكلاب من اللهو الذي كان شائعاً في العصر العباسي. على أن الأغلب أن تكونا طردية واحدة لاتفاقهما في الموضوع والروى والمطلع أيضاً ولا مكان إدماجهما معاً في طردية واحدة دون خلل يَبين. لهذا كله رجح عندي كونهما طردية واحدة، ثم هما تدوران حول وصف الديك الهندي ومناقرته لأقرانه من الديكة، فأين هو الطرد بالمعنى الذي عرفناه منذ العصر الجاهلي حتى عصر أبي نواس. ونمضي مع طرديات أبي نواس بعد هذه المقدمات الضرورية لنرى إنها قد انقسمت حسب موضوعها الرئيسي الذي تدور من حوله أحداث الطردية إلى جملة من الأبواب أو الفصول، فقد يكون محور الأحداث حيواناً ضارياً، أو طيراً جارحاً، أو حيواناً عادياً كالجواد. وربما كان إحدى وسائل الصيد المادية كالفتح والبندق. على أنني أرى أن للطردية حدين أو عنصرين أو لنقل ركنين أساسيين لا بد من توافرها حتى يتم معنى الطرد هما الطارد والمطروء، أو الطارد والطريدة أو الصائد والمصيد. وقد يكون هذا هو الذي أوحى لمن وضع طرديتي الديك الهندي ضمن هذه الطرديات لكون أحد الديكين يكون طارداً والآخر مطروداً أو

(١) ديوان أبي نواس ص ٢٩٨ ط. بغداد، و ٢٥٣/٢ ط. فاجتر.

(٢) المصدر السابق نفسه ص ٢٩٨ ط. بغداد. (٣) المصدر السابق ٢٥٣/٢ ط. فاغتر.

(٤) ديوان أبي نواس ط. الغزالي ص ٦٥٩. (٥) الديوان ص ٦٤٥ ط. الغزالي.

طريدة. أو لنقل إن هذه المناظرة بين الديكين لا بد أن تنتهي على شاكلة الصراع بين الصائد والمصيد، أو بين الطارد والطريد، وعلى كل، فإن من أول شروط الطردية أن يكون طارد ومطروود أو طارد وطريدة، والطارد هو العنصر الأول: والركن الأول من ركني الطردية، بغض النظر عما يكون: حيواناً ضارياً أو طائراً جارحاً أو حيواناً عادياً كالجواد أو إحدى أدوات الصيد الأخرى... !

هذا وباستقصاء جميع طرديات أبي نواس يتبين أن الركن الأول من الطردية اشتمل على العناصر التالية:

من الضواري: الكلاب والفهود.

ومن الجوارح: البزة والصقور والبيّء والشواهين والديك الهندي.

ومن الحيوانات غير الضواري: الحصان.

ومن الأدوات المادية الفخ وقوس البندق.

ومن الملاحظ أن الطردية كانت تولي هذا العنصر اهتمامها أكثر من الاهتمام بالطريدة. كأنما الطردية في الأصل انعقدت على وسيلة الصيد أو النصائد من حيوان ضار أو طير جارح أو أداة مادية ليأتي الحديث عن العنصر الثاني وهو الطريدة أو الحيوان المصيد في المقام الثاني أو في معرض الحديث عن العنصر الأول، حتى وجدنا صاحب هذه الحيوانات من جارحة وضارية يُنسب إليها. فصاحب الفهود أو مدربها يسمى فهاداً. ومثله مدرب الكلاب يسمى كلاباً، وكذلك صاحب الصقور يدعى صقاراً^(١). وبناء على ذلك قسمت الطرديات إلى أقسام تبعاً للحيوان الصائد أو وسيلة الصيد. وهذا معقول، فبالوسيلة، مهما يكن نوعها تتحقق الغاية من عملية الصيد أو الطرد، ثم إن هذه الوسيلة هي المحرك للحدث أو العملية، وعليها يقع عبء عملية الصيد أو الطرد من أوله إلى آخره، كما يتوقف على سعيه، النتيجة بالظفر أو الفضل.

ومادام الأمر كذلك، فلعل الأفضل أن نبدأ، في محاولة للوقوف على حقيقة الطردية النواسية، أن نتعرف أولاً على أنواع الطرائد التي تضمنتها طرديات الشاعر، تمهيداً لتبين خصائص ما امتاز به شعر الطرد عند شاعرنا. هذا ولا يفوتنا، أن نذكر، إن رحلات أبي نواس للصيد كانت، للهو والمتعة والتسلية لا للرزق والمعيشة. فلا بد أن تكون طرائد هذه الرحلات من النوع الذي يتناسب وهذه الرحلات الملوكية حيث كان يرحل أبو نواس للصيد في رفقة خليفة أو أمير أو وزير أو قائد ممن تستهويهم أنواع معينة من الطرائد، ولذا اختفى من طردياته حمار الوحش والذئب والضباع

(١) الصيد والطرد عند العرب ص ٥٢ بتحقيق ممدوح حقي.

لا لأن هذا الحيوان لم يكن في بيئة العباسيين^(١)، بل لأن مثل هذا الحيوان كان يصيده البدوي في صحرائه طعاماً لعياله. ولم تكن رحلات من سلف ذكرهم من السادة للارتزاق والكسب وإنما كانت للهو والتسلية والفروسية، تماماً كما كانوا يجرون خيولهم للسباق، وكم كان يغيظ الواحد منهم إذا فشلت جوارحه أو ضواريه في الصيد، مثلما كان يستبد به الحزن أو الغيظ إذا فشلت جياده في السبق^(٢).

هذا، وبعد استقصاء شامل لطرديات أبي نواس نستطيع أن نضع أيدينا على الطرائد التي تضمنتها هذه الطرديات، إلا أنه قد يكون من الصعب أن نحدد لكل طارد طريدة بعينها يختص بها كما حاول بعض الدارسين أن يفعلوا، غير أن الذي لا شك فيه أن الجوارح من الطير أولى بطرائد الطير من الضواري. ولكن ربما اشترك حيوان ضار مع طير جارح في عملية صيد واحدة، كأن يشترك صقر مع كلب في صيد غزال^(٣). إلا أن الذي يحدد الطريدة وطاردها هي الطردية نفسها، لذلك فقد آثرت أن أسمي طرائد طرديات أبي نواس جملة واحدة لنحدد عند درس أو شرح الطردية طاردها وطريدتها معاً كما ذكرت. هذا وقد تضمنت طرديات أبي نواس من الطرائد البرية: الأرانب، والثور الوحشي، والظباء والثعالب والنعام برثالها وظلمانها.

ومن الطرائد الجوية أو الطيور:

الجباري، والكرابي، والبغثان، وأسراب الطيور دون تسميتها والمكاء، والقطا، والعصفور. وربما كان هذا العدد قليلاً، إذا ما قيس إلى عدد طرديات أبي نواس التي أربت على الخمسين كما يقول بعض الدارسين، ولكن لذلك أسباب من جعلتها أن الشعراء في ذلك العصر صرفوا همهم كما ذكرت إلى وصف الجوارح والضواري أكثر من اهتمامهم بالطرائد، التي كان المفروض أن تكون أعدادها أضعاف عدد الضواري والجوارح لإمكانية الصيد بالوسيلة الواحدة، والجارح الواحد جملة من أصناف الطرائد البرية والجوية.

- مذهب أبي نواس في طردياته:

بعد هذا أحسب أن قد حان الوقت حتى نتعرف على الأسلوب الذي سلكه الشاعر في بناء طريدته وهل كانت له لغة مختارة في طردياته، ومعاني خاصة به.؟

كل هذه الأسئلة قد أجبتنا عنها، في كوننا وضعنا هذا الفن من شعر أبي نواس تحت دائرة

(١) الصيد والطرود في الشعر العربي ص ١١١.

(٢) الوزراء والكتاب ص ٢٠٧.

(٣) الصيد والطرود عند العرب ص ٥٢.

التقليد، وإذن فأبو نواس في طرده، مقلد، ولكن ذلك لا يعني إنه لم تكن له شخصيته المتميزة في تناوله لهذا الموضوع الصعب البديع. الواقع إن هذه الطرديات تكمل صورة الشاعر الجديد القديم في شخص أبي نواس، ولعل للعقاد بعض العذر فيما ذهب إليه من أن أبا نواس كان يقصد بمبالغته في التقليد بهذه الطرديات إثبات قدرته اللغوية وإن ذلك كان منه من قبيل العرض الفني^(١) وإنه ليس أقل من بشار في هذا الباب الذي كان يتحدى رجاز عصره، وهكذا اصطنع أبو نواس لطردياته بحر الرجز إلا في القليل منها، ألمحنا إليها فيما مضى من الصفحات. كما حرص على النص في معظم طردياته خاصة الكلية منها على لفظ «الغدو» بمعنى التبكير، كدلالة على أن أحسن أوقات الصيد يكون في الصباح الباكر وهكذا تكرر لفظ «الغدو» طبقاً لما ورد في ديوانه برواية الأصبهاني، خمس عشرة مرة، وهو عدد كبير، يشعر القارىء أن «الغدو» أو التبكير من لوازم الصيد، ثم نصه على لازمة أخرى وهي لفظ «أنعت» وردت ثلاث مرات، هكذا: أنعت كلباً...! وإلى جانب بحر الرجز اختار القافية المزدوجة الروى كما اختار أصعب القوافي وأندرها وروداً في قصائد الشعراء من مثل: الطاء والطاء... كما كان الصائده (الحيوان الضاري) أو (الطير الجارح) هو الغالب على الطردية من دون المصيد، لأسباب ذكرت آنفاً، حتى كأن الطردية، لم يكتبها الشاعر إلا لإظهار جمال أو قوة أو نفع، هذا الجارح أو ذاك الضاري لتكون الطريدة على مسرح الطرد، حيث تكون معركة الصيد في الجو أو على الأرض، أحد العوامل المساعدة، على إبراز مزايا هذا الصقر أو ذاك البازي أو ذاك الكلب أو الفهد...!

وعلى أية حال فقد كان للكلب القسط الأكبر من طرديات أبي نواس التي تعد من أبرز الموضوعات التي استأثرت بعبقريته في الوصف. ولذلك كان طرده وأبرزه في الكلب، قرين شعره في الخمر، إذ أربى ما قاله في الكلب من طرد على جميع ما قاله في الجوارح والضواري وأدوات الصيد الأخرى. والقارىء لطردياته في الكلب يحس أن علاقة حميمة كانت تربط بين الشاعر وكلبه. وبغض النظر عن المشاركة الوجدانية التي تجمع أطراف الصيد من إنسان وغيره، فإن طردياته الكلية تمتاز بما هو أكثر من هذا، تمتاز بالمعرفة الدقيقة بأحوال الكلب في سرائه وضرائه، وهذا لا يستغرب من أبي نواس الذي كان يعرف من الكلاب (ما لا تعرفه الأعراب)، ولو لم يكن الأمر كذلك لما كان منه هذا الإلحاح على الكلب، ولذلك تضمنت طردياته الصفات المستحبة في كلب الصيد. وصفاته الجمالية، والمنافع التي يفيدها الكلاب من وراء صيده، ففي مقطوعة تقع في ستة أبيات، يظهر لنا مدى اعتزاز أبي نواس بهذا الكلب اعتزاز الفارس العربي بجواده الذي

(١) أبو نواس للعقاد، ص ١٥٨.

به كان يصبح الأعداء، وعليه كان اعتماده في النجاة إن داهمه خطر مفاجئ، على أن في هذه الطردية ميزة قد لا نجدها في الجواد وهي إن الكلب صياد ماهر حتى غدا ولي نعمة أصحابه، به يسعدون حين هم بفضل سعيه يرزقون، ولذلك فهم يكبرونه حتى أصبح صاحبه كأنه عبده، وهكذا كان له المكان الأدنى عنده فإن تعرى احتضنه تحت ثيابه... ! ثم إن هذا الكلب أغر، أي في جبهته بياض، وبمثل هذا كان العرب يستشرون ويتبركون، حتى إنهم ليدعون المبارك بالقال «مبارك الناصية» وكذلك هو محجل الزند، ونحن نعرف أن العادة أن يُطلق لفظ المحجل على الجواد، هذا إلى استواء قد يروع القلب والعين منظره، ثم إن فيه من الصفات الكلبية الطردية ما يليق بمثله من الكلاب الأصيلة؛ من اتساع شذقيه وطول خده، فكم تحاول الظباء عبثاً الإفلات من قبضته فياله كلباً قل نظيره^(١)...

أَنْعْتُ كَلْباً أَهْلُهُ مِنْ كَدِّهِ قَدْ سَعِدْتُ جَدُودَهُمْ بِجَدِّهِ
وَكُلُّ خَيْرٍ عَنْدهُمْ مِنْ عِنْدِهِ يَظَلُّ مَوْلَاهُ لَهُ كَعَبْدِهِ
يَبِيتُ أَدْنَى صَاحِبٍ مِنْ مَهْدِهِ وَإِنْ عَرَى جَلَلُهُ بُرْدِهِ
ذَا غُرَّةً، مَحْجَلاً بِرَنْدِهِ تَلْدُ مِنْهُ الْعَيْنُ حَسَنَ قَدِّهِ
تَأْخِيرَ شَذْقِيهِ وَطُولَ خَدِهِ تَلْقَى الظَّبَاءُ عَنَّا مِنْ طَرْدِهِ^(٢)
يَشْرَبُ كَأْسَ شَدِّهَا بِشَدِّهِ يَصِيدُهَا عَشْرِينَ فِي مُرْقَدِهِ^(٣)
يا لك من كلب نسيجٍ وحده!

هناك ثلاثة جوانب ظل أبو نواس يلح عليها في طردياته الكلبية، هي الجانب الجمالي والجانب النفعي وجانب القوة بحيث يتشكل من مجموعها الوجود الشعري لهذا الكلب الجميل القوي النافع، وقد تجوز ناحية على أخرى. ولكن أبا نواس استطاع أن يستغرق في هذه الجوانب جميع الصفات المستحبة والنافعة والباعثة على الإكبار في كلابه...

وفي إحدى طردياته يصف أبو نواس مشهداً طردياً عجيباً، والأعجب أنه يبدأ الطردية بغدو الصيد، وهو الثعلب هنا، بدلاً من الكلب كما عودنا في كثير من طردياته، فهو بعد أن يشير إلى غدو الثعلب صباحاً خارجاً من جحره يلتمس الكسب لصغاره، يمضي في وصف هذا الثعلب،

(١) الديوان ص ٦٢٤ ط. الغزالي.

(٢) عنتا تحاول الظباء الفرار منه.

(٣) المرقد كمعتر: الطفرة نشاطاً، أي يلحقها فيستغرق عدوها في شدة وعدوه.

فهو جذلان قد استخفه المرح حتى كان يدور في موضعه الكائن فيه، إذا بكلب مهتاج جائع يختال في زينته، ويشير إليه أبو نواس بلفظ «ضرم» أي ملتهب مستطرداً إلى وصف هذا الكلب مذ كان غصاً طرياً إلى أن استوى في تمام عدته من ضمور في الجسم، وحدة في الأسنان، وتلهب في العين، حتى أحسن تدريبه وتأديبه فأصبح قادراً على الصيد بعد الاختبار^(١):

لما غدا الثعلب من وجاره . يلتبس الكسب على صغاره^(٢)
 جذلان قد هيج من دواره . عارضته في سنن امتياريه^(٣)
 بضرم يمرح في شواره . في الحلق الصفير وفي أسباريه^(٤)
 مضطرم القصري من اضطماره . قد نحت التلويح من أقطاره^(٥)
 من بعد ما كان إلى أصباره . غصاً كستته الخور من عشاره^(٦)
 أيام لا يحبس من عثاره . وهو طلي لم يدن من شفاره^(٧)

ثم يجيء مشهد الصيد البديع، الذي جمع فيه أبو نواس من قوة التركيز وشدة وضوح الصورة بحيث جعل من هذا الكلب الهائج، وهو قاصد صيده، طلقاً منقضاً، مثل انقضاض الكوكب اللماح أو شارة النار في يد رجل يديرها، حتى بلغ من شدة علوه أن أظفاره تكاد تسبق أذنيه فتخدشها خدشاً، حتى وافى صيده ولحق به وداخله في عفاره، ثم أهوى عليه متزعجاً مفاصله ممزقاً صدره، فاصلاً فقاره. . وهكذا فما أفاد الثعلب بكوره في الغداة إلى معاشه. . !

فانصاع كالكوكب في انحداره . لفت المشير مؤهنا بناره^(٨)
 حتى إذا أحصف في إحضاره . خرّق أذنيه شبا أظفاره^(٩)

(١) الديوان ٦٢٩، ط. الغزالي.

(٢) الوجار: الحجر.

(٣) سنن امتياريه: طريقة طلبه الطعام.

(٤) ضرم: جائع ملتهب، الشوار: الزينة والمتاع، والمراد القلائد.

(٥) مضطرم: ملتهب، القصري: أسفل الأضلاع، أقطاره: جوانبه.

(٦) الأصبار: جمع صبر وهو ناحية الشيء. غص: طري متملىء لحماً وشحمًا، الخور: جمع خواره وهي الناقة الغزيرة، العشار: جمع عشاء وهي الناقة التي لها عشرة أشهر من حملها.

(٧) شفاره: شفر الكلب إذا استوفى من سنه سنة.

(٨) انصاع: أي انشق في ناحية، انحداره: انحطاطه وانقضاضه.

(٩) أحصف: بالغ في العدو.

حتى إذا ما انشامَ في غُبارِهِ عافره أخرقَ في عِفارِهِ^(١)
فتلّ المِفصلَ من فِقارِهِ وقدَّ عنه جَانِبي صِدَارِهِ^(٢)
لا خير في الثعلب في ابتكاره

يمثل هذا التركيز بالقليل 'من الألفاظ في كثير من المعاني ويمثل هذا التجميع للصور على مسرح الأحداث كان أبو نواس يتدّى طرديته وينهيها، ولو أن هيئة فنية عربية من مؤلفين ومخرجين وسيناريين، تضافروا على مثل هذه الطرديات العجيبة لا تحفونا منها بأعمال فنية بديعة تربط الماضي بالحاضر بل تجعل الحاضر يمثل الماضي ويمثله في حياتنا المعاصرة ليؤهله لمعيشة الحاضر بكل ما في ذلك الماضي من أصالة وعظمة.

أبو نواس حريص على التدقيق في الصورة للطارد والطريد وللحدث بنهايته المعروفة . . !

إن جمالية الكلب، إذا كانت قد أخضبت خيال شاعرنا فقد استأثرت بموهبته التصويرية. كما لم تستأثر بها جمالية جراح أو صار غيره . . فصورة الكلب عند أبي نواس دائماً منتقاة مختارة توحى بالروعة والجمال في آن واحد . . إلا أن أبا نواس يجعل القوة التي تسفك الدماء وتمزق المفاصل وتجندل الطرائد مثار إطرء وإعجاب وإكبار، لا من حيث هي قوة غلبة، بل لجمال المشهد ولطرافة الحدث .

ولننظر إلى هذا الكلب وقد رأى تيس الظباء بقرنيه الطويلين، على ما لهذا التيس من قوة ونشاط وشدة في الجري، إذا به يشتد في إثره وكأنه البرق في سرعته فيجاريه عدواً حتى أدركه مذبذباً من حواليه حب الحصى وكأنها فقاقيع الزيت عند قليه^(٣):

لما رأى العَلْهَبَ في أَقْوَاطِهِ^(٤)

سَابَحَهُ وَقَرَّ فِي التَّبَاطِطِ^(٥) .

كالبرق يُذْري المَروَ بالتَقَاطِطِ^(٦)

(١) انشام: دخل فيه، عافره: غلبه مارسه.

(٢) تلّ: شد ونزع، قد: شق، صداره: ما على صدره من جلده.

(٣) ديوان أبي نواس ص ٦٢٥ تحقيق الغزالي.

(٤) العلهب: المسمن من الظباء، الأقواط: جمع قوط وهي القطيع من الغنم.

(٥) سابحه: أي عاداه، والألتباط: العدو بأشد القوة.

(٦) يذري: يثير، المرو: الحجارة الصغيرة.

مثل قَلِيٍّ طَارَ فِي أَنْفَاطِهِ^(١)

أما مرثية أبي نواس في كلبه فهي قمة طردياته الكلبية وأن تكن القصيدة ليس فيها من معنى الطرد إلا أنها قيلت في أحد ضواريه ألا وهو الكلب. . ! وهي بكائية من نوع طريف، ولعل أبا نواس تجاوز حد الاعتدال في هذه المرثية حين جعل من هذا الكلب، عدته وزاده في هذه الدنيا، وهي مبالغة غير معقولة. فأبو نواس لم يكن يرتزق بالصيد أو القنص وإنما كان يتسلى ويلهو ويلعب بالكلاب. أجل كان يلعب بالكلاب إذ فاته أن يكون فارساً. . . ثم إن معاشه كان من نوال انخلاء والحكام وذوي السلطان لا من الكلاب، أو الصقور أو البزاة، كما كان يفعل الخليل بن أحمد الفراهيدي، فكيف يزعم أنه «أغناه عن القصاب» وعن «شراء الجلب الجلاب». هذا كلام يقوله صياد محترف مرتزق اتخذ الصيد معاشاً ورزقاً، أما من كان مثل أبي نواس يعيش في ظلال الخلفاء، فلا يجوز له مثل هذا الكلام وإذن فهذه هي الطردية الأولى والأخيرة التي فيها يصرع الصائّد، غير مصيد، وإنما عدو لدود، أفعى من الرقش، كالحة الأنياب، على أن أبا نواس جعل مرثيته «ولا أقول طرديته» في فصلين، عدد في الفصل الأول منها ماثراً كلبه «حلاب» واصفاً إياه بسيد الكلاب وإنه أغناه عن القصاب، لعله أراد أن يؤكد لنا اهتمامه بالكلاب من دون الجوارح والضواري الأخرى، كما يذكر لنا الجاحظ لعبه بالكلاب زماناً حتى كان يعرف عنها أكثر مما يعرف الأعرابي. . ! وهو يذكر هذا الكلب منوهاً بصيده للظباء والذئاب، وهذا غريب، فلم ترد الذئاب كما أسلفت بين طرائد شاعرنا فلربما كانت القافية هي التي جاءت بلفظة الذئاب في هذه المرثية، كما كان في هذا الكلب أيضاً الغنى عن الصقر، مما يؤكد أن أبا نواس لم يكن صاحب صقور أيضاً، فلعله أغرم بالبزاة الفارسية كما يقول الجاحظ من دون الصقور العربية أو لعله يشير إلى الصيد المشترك بين الكلب والصقر فأغناه «حلاب» عن ذلك فكان اعتماده على الكلب وحده.

وحين يريد أبو نواس أن ينوه بفضل كلابه، يجد المجال أمامه واسعاً وكيف لا. . . وقد أغناه هذا الكلب عن القصاب وعن الخدم يجلبون له الطعام، وإذن فهذا الكلب صياد ماهر وخادم أمين، ثم هو أغناه عن الضواري والجوارح الأخرى، وذلك لما جرب وخبر من أفاعيله في الظباء والذئاب والغزلان، إذا انقضض عليها كان كالبرق المتصوب بين النجم والسحاب، وهي صورة تتكرر عند أبي نواس كثيراً في وصف سرعة كلابه^(٢):

(١) القلي: ما قلى على المقل، الأنفاط: الفقايع المتناثرة في الهواء.

(٢) ديوان أبي نواس ص ٦٤٣ بتحقيق الغزالي.

يا بؤس كلبي سيد الكلاب قد كان أغناني عن العقاب
وكان قد أجزى عن القصاب وعن شراء الجلب الجلاب^(١)
يا عين جودي لي على حلاب من للظباء العفر والذئاب^(٢)
وكل صقر طالع وثاب يختطف القطان في الروابي
كالبرق بين النجم والسحاب كم من غزال لاحق الأقارب^(٣)
ذي جيشة، صعب وذو ذهاب أشبعني منه من الكباب

وفي الفصل الثاني يحكي أبو نواس قصة مصرع الكلب وكيف أن حية لدغته في رحلة صيد فخر صريعاً، وهو يصف الحية بأنها كالحة الأنياب رقشاء مخططة . . . وأبو نواس يختم هذا الفصل بالتهديد متوعداً هذه الحية الخبيثة . . . بالويل والثبور:

خرجت والدنيا إلى تباب به وكان عذتي ونابي^(٤)
أضفر قد ضرج بالملاب كأنما يذهن بالزرياب
فبينما نحن به في الغاب إذ برزت كالحة الأنياب^(٥)
رقشاء جرداء من الثياب كأنما تبصر من نقاب^(٦)
فعلقت عرقوه بناب لم ترع لي حقاً ولم تحاب
فخر وانصاعت بلا ارتياب كأنما تنفخ من جراب
لا أبت أن أبت بلا عقاب حتى تدوقي أوجع العذاب^(٧)

وسياتي الفهد بعد، من بين الضواري التي احتوت عليها طرديات أبي نواس، وإن يكن نصيبه من هذه الطرديات أقل نصيب إذ لم يقل فيه أبو نواس إلا طردية واحدة تقع في عشرة أبيات .

هذا والفهد من السباع، وهو من جوارح البهائم، وفي طبعه مشابهة بالكلب، كما أن من خلقه الغضب ويضرب به المثل في كثرة النوم، فيقال أنوم من فهد، وأثقل رأساً من فهد^(٨).

(١) الجلب: الخدم.

(٢) تباب: هلاك.

(٣) لاحق القرب: بمعنى ضامر.

(٤) تباب: هلاك.

(٥) كالحة الأنياب: الحية تكثر عن نابها.

(٦) رقشاء: مخططة.

(٧) لا أبت: لا رجعت، . يدعو على نفسه قائلاً لا رجعت سالماً إن رجعت أيتها الحية بلا عقاب أليم.

(٨) الصيد والطرء عند العرب ص ٧٠، ٧١.

ومن شأنه (إذا وثب على طريدته، لا يتنفس حتى ينالها فيحمي لذلك وتمتلىء رثته من الهواء الذي حبسه وسيله أن يراح ريشما يخرج ذلك النفس وتبرد تلك الغلة)^(١)؛

هذا وللفهد ضروب من الصيد، منها المكابرة، وهي لفظة يستعملها الفهادون ويريدون بها المواجهة والدسيس والمذانبة^(٢) أما الدسيس فهو أن تحط الفهد عن دابته بعد أن يتشوف الظباء ويحبسها على بعد وتسير أنت دابتك كأنك لا تنحونحوها وفهدك يدب إليها . . !
والمذانبة، أن تمتد الظباء وتأتي في إثرها وأذناها تلتقي الفهد عليها^(٣) .

ويقول الجاحظ (وقد يصاد بضروب منها الصوت الحسن فإنه يصغى إليه اصغاء حسناً وإذا اصطادوا المسن كان أنفع لأهله في الصيد من الجرو الذي يربونه . .) وأيضاً: (وهو أنفع من صيد كل صائد وأحسن في العين وله فيه تدبير عجيب)^(٤).

هذا ولا تتميز الأرجوزة التي قالها أبو نواس في الفهد بشيء ذي بال عن طريدياته في الكلب، بل إنها تكاد تكون تكراراً لما سبق قوله في طريدياته الكلبية . والظاهر أن أبا نواس لم يكن فهّاداً، أو صاحب فهود فلم يعرف عنه مثل هذا الشغف، وإنما كان صاحب كلاب . فالكلب بأمانته ووداعته أقرب إلى أبي نواس وآلف وأبو نواس في هذه الطردية لم يزد على أن قال، إنه غدا مبكراً إلى الصيد، فدعا فهّاده حتى يهيه الفهد فجاء به يسوقه أمامه بلونه^(٥) الذي يجمع بين الأسود والورد:

لما طوى الليل حواشي بُردِهِ عن واضح اللونِ نقيٍّ وَرْدِهِ
ناديتُ فهّادي بَرْدُ فهدِهِ نداءً من جادٍ له بُوْدِهِ
فجاء يُزجيه على سَمْنَدِهِ أصفرَ أحوى بينَ بَيْنِ وَرْدِهِ^(٦)

وينوه أبو نواس بحسن قد هذا الفهد، واكتمال خلقه، فما أن جاء به الفهّاد حتى طلب إليه أن يردفه وراءه ففعل باسطاً إليه زنده ليتكىء عليها:

(١) المصايد والمطارِد لكشاجم ص ١٨٤.

(٢) المصدر السابق نفسه ص ١٨٣.

(٣) المصدر السابق نفسه ص ١٨٤.

(٤) الحيوان ٦/ ٤٧١.

(٥) ديوان أبي نواس، ص ٦٤٩ ط . الغزالي .

(٦) الأحوى: الأسود، الورد: ما بين الكميّ والأشقر.

السمند: الفرس (فارسية) كما ورد في المعجم الوسيط ومعجم الألفاظ الفارسية للمطران الديشيري الكلداني، المطبعة الكاثوليكية بيروت ١٩٠٨.

واحدٌ قدَّ في اكملالٍ قدَّهٍ قلتُ ارتدَّفه فانشنى لِزُنْدِه^(١)

ثم سرعان ما ينتهي أبو نواس إلى الحديث عن صيد الفهد، حين أنجز مهمته بالسرعة الفائقة، فما هي إلا لحظات حتى وقع بصر هذا الفهد على قطع من بقر الوحش واقف على ماء يشرب على مهل، فانصب عليه الفهد انصباب الشهاب في سرعته واندفاعه فما كان إلا قدر ما يطوى العاد على يديه خمسين، حتى كان الفهد قد أصاب صيده من البقر، فريسة سهلة. وهكذا كنا ضيوفاً عليه، يقرينا مما اجترح بحد سيفيه إشارة إلى أنيابه ومخالبه:

ما كان إلا نظرةً من بعدهِ ونظرةً أخرى بأدنى جُهدِه
حتى أَرانا العينَ دونَ ورْدِهٍ مُطَرِّداً يحسو بشفرى عَدِه^(٢)
فانصاعَ مرْقِداً على مُرقِّدِهٍ كأنه حين انفرى في شدِه^(٣)
وامتد للنَّاظر في مُرتِّدِهٍ كوكبٌ عفريتٍ هوى لَعَدِه
كما انطوى العاقدُ من ذي عَقْدِهٍ خمسينَ عاماً بيدى معَتَدِه
حتى احتوى العينَ ولما يُردِهٍ فنحن أضيافُ حَسامى غِمْدِه

أما عن الجوارح التي نالت اهتمام أبي نواس فتأتي البزاة في الدرجة الأولى تليها الصقور، فهل كان وراء ذلك نزعة شعبية، لأن البازي كما يذكر الجاحظ فارسي والصقر عربي؟ خاصة إن المعروف أن أبا نواس لم يكن صاحب بزاة ولا صقور، وإنما كان صاحب كلاب لعب بها زماناً، ويعود اهتمامه إلى وصف الجوارح أنه كان يصف جوارح الخلفاء والوزراء الذين كان يرافقهم في رحلات الصيد^(٤).

والبازي أحد الجوارح الأربعة: البازي والشاهين والصقر والغراب^(٥) وهو أشرف سباع الطير، به يضرب المثل في نهاية الشرف. وكنيته أبو الأشعث وأبو البهلول وأبو لاحق^(٦).

ومن صفاته المحموده، (أن يكون طويل العنق، عريض الصدر بعيد ما بين المنكبين، وأن

(١) اكملالٍ قدَّه: كمال قدَّه.

(٢) يحسو: يشرب شيئاً بعد شيء، الشُفْرُ: بالضم ناحية كل شيء، العد بالكسر: الماء الجاري الذي لا يتقطع.

(٣) مرْقِداً: مسرعاً.

(٤) شعر الطرد إلى نهاية القرن الثالث الهجري لعبد الرحمن رافت الباشا: ص ١٨٩.

(٥) المصايد والمطارِد لكشاجم ص ٤٨.

(٦) الصيد والطرد عند العرب ص ٤٤.

يكون فخذاه مسرولين بريش وذراعاها غليظين قصيرين^(١) كما يحمد فيه (صغر الرأس والمنسر وغلظ العنق وسعة العينين ودائرتي الاذنين والشدقين)^(٢).

وفي نهاية الأرب^(٣)؛ ومن صفاته المحموده أيضاً أن تكون (أشاجع كفيه عارية وأصابعه متفرقة لا مجتمعة مثل كف الغراب وأن يكون مخلبه أسود وأن يكون طويل المنسر دقيقه) ومن خواصه أنه لا يكون إلا منفرداً^(٤). ومن فضيلته أنهم قالوا: (أحسن صور ثلاث اجتمعت باز على يد رجل على ظهر فرس)^(٥).

وهو سهل الانقياد، قابل لتعلم الصيد ولكنه أحر الجوارح مزاجاً لقلّة صبره على العطش^(٦). ومن عجائبه ألا يكون إلا أنثى، وذكرها من نوع آخر من الحدأة أو الشواهين، ولهذا تباينت أشكالها^(٧) وهو يصيد الطير ما بين العصفور والكركي^(٨) والحيوانات الصغيرة كالآرانب وأمثالها.

هذا وقد بلغ مجموع ما قاله أبو نواس في البازي سبع طرديات وبذلك يكون قد احتل الدرجة الثانية من اهتمام أبي نواس في فن الطرد، بعد الكلب مباشرة، وقد ركز على شكله وهيئته، بإلحاح يكشف عن إعجابه بهذا الجارح الفارسي، مبرزاً أهم صفاته الجسمانية، وعليه تمام حليته، ثم يعتمد بعد ذلك إلى وصف أفاعيله في الصيد وكيف يكون انقضاضه على طرائده، هذا مع القافية الصعبة التي كثيراً ما اصطنعها أبو نواس في طردياته، وما هو في إحدى طردياته القصيرة يصف البازي وكأنه ملك متوج في الجو، وقد ارتدى الحلي وفاخر الملابس المذهبة، واكتسى صدره بالديباج المنقوش، كما يصف هامته ومنسره العظيمين وأنه مولع بصيد الكراكي، فما أن أبصر عشرين منها في مكان يسمى «ذات الصيص» حتى انقضض عليها بسرعة عظيمة محدثاً فيها مجزرة مروعة. فذبّحوها الكسيرة الأعناق منها، وأبقوا غيرها. فكم في بيتهم من طرائد هذا البازي من صيد معدة للشئ... وأخرى نقيعة في الخل^(٩) :

آلف ما صدت من القنيص بكل باز واسع القميص
ذي بُرُئس مذهب رصيص وهامة ومنسر حصيص^(١٠)

(١) الصيد والطرد عند العرب ص ٤٦ .

(٢) المصايد والمطارذ ص ٥٤ لكشاجم .

(٣) ١٨٧/١٠ .

(٤) المصدر السابق نفسه ص ٥١ .

(٥) المصدر السابق نفسه ص ٤١ .

(٦) المصدر السابق نفسه ص ٤٤ .

(٧) المصايد والمطارذ لكشاجم ص ٥١ .

(٨) نهاية الأرب ١٨٧/١٠ .

(٩) ديوان أبي نواس ص ٦٤٧ بتحقيق الغزالي .

(١٠) الحصيص - الخالي من الشعر .

وجؤجؤ عول بالدليص مدبج، معين الفصوص^(١)
على الكراكي نهم حريص أنس عشرين بذات العيص^(٢)
فانسل عن سكاره الممحوص وانقض يهوى وهو كالوبيص^(٣)
دائى جناحيه إلى نصيص فاعتام منها كل ذي خميص^(٤)
فقدّه بمخلب قبوص فكّم ذبحنا ثم من موقوص^(٥)
وكم لنا في البيت من مقصوص معدّة للشي والمُصوص^(٦)

وأبونواس لا يكتّم إعجابه بهذا الجراح العجيب. . وإنما ينثني عليه باللفظ الصريح «أطريك» مما يدل على شغفه به وإكباره له، وأكثر من هذا، إن اطراء له شعراً لا كلاماً عادياً، شعراً مرتجلاً يقوله على البديهة، أو شعراً مجوداً قد أحسن صناعته. . !

أطريك يا بازينا وأطيري مرتجلاً وفي حبير الشعر^(٧)

كما يصفه في إحدى طردياته في تمام هيئته «الطردية» وكامل عدته، وقد دعر به أفاطيع الطير والوحش فيها هو واقف على قفاز بازياره بكفيه السبطين الرحبين، وبرائنه التي تشاكل برائن الذئاب، ووظيفه الفائق الظنوب، وصدره الذي يحاكي وعاء الطيب، وجناحيه الراسخين على منكبيه، وعظامهما الوافية المفاصل وريشهما الجم الكثير:

يوفى على قفازه المجوب منه بكف سبطة الترحيب^(٨)
كأنها برائن من ذيب يضبطهن في ثرى مصوب^(٩)
إلى وظيف فائق الظنوب وجؤجؤ مثل مدالك الطيب^(١٠)

(١) الجؤجؤ- الصدر، عول: أدل وأعجب، الدليص: المديح المنقوش

(٢) الكراكي: جمع كركي وهو طائر، ذات العيص: اسم مكان.

(٣) السكار: المحبس، الممحوص: المجلو، الوبيص: البرق.

(٤) النصيص: أقصى السير والحركة، اعتام منها: أخذ خيارها.

(٥) القبص: الأخذ بأطراف الأصابع، الموقوص: المكسور العنق.

(٦) المصوص: لحم ينقع في الخل. (٧) الحبير: البرد الموشى.

(٨) القفاز: كيس يلبسه البازيار بيده وعليه يقف البازي، سبطة الترحيب: شديدة السعة.

(٩) البرائن: المخالب، يضبطهن: يقبض بهن.

(١٠) الوظيف: مستدق الذراع والساق، الظنوب: حرف الساق من أمام، الجؤجؤ: الصدر، مدالك الطيب: وعاءه.

تحت جناح مُوجِدِ التنكيب ذي قصبٍ مستوفرِ الكُعُوبِ^(١)
وحفِ الظُّهَارِ، عَصِلِ الأنُوبِ^(٢)

- ضروب أخرى من الطرد:

لاحظنا فيما عرضنا له من طرديات دارت حول الكلب والفهد والبازي، توافر شروط فن الطرد فيها من طارد (حيوان ضار أو طائر جارح) ومطروح (حيوان غير ضار وطائر غير جارح). ومن عملية طرد أو قنص، ما بين الطارد والمطروح، هذا إلى جملة من الخصائص الأخرى، منها أن تبدأ الطردية بمقدمة، وأن تنتهي بخاتمة، مع اصطناعها لبحر الرجز في معظمها، إلا أن هناك جملة من الطرديات خالفت هذه المعايير الجمالية التي التزمها أبو نواس في معظم طردياته، من ذلك إنه أدار طرديتين حول الفرس أو الحصان، وهو ليس بحيوان ضار، بل هو حيوان أليف، وإنه احتل مكانة مرموقة عند العرب الأقدمين، لا لأنهم كانوا يصطادون به، بل لأنه كان وسيلة لإتاحة عملية القنص أو الصيد ومطاردة الطرائد، وأحياناً مطاردة الوحوش الضارية، وهكذا دارت حوله أشعار كثيرة تهتم بالجانب الجمالي منه، بجانب القوة وشدة العدو أو متانة الهيكل، ويكاد لا يوجد شاعر جاهلي إلا وقد نوه بأهمية الحصان في حياته المعيشية والفنية أيضاً.

أما أبو نواس، فقد عاد بنا القهقري إلى العصر الجاهلي أو الإسلامي، حين أولى في طرديتين من طردياته الفرس أو الجواد هذا الاهتمام الفائق على غرار صنيع الأقدمين، خاصة، بعد أن تطور هو نفسه بفن الطرد إلى صورته المتقدمة في طردياته.

أما الطردية الأولى فمقطوعة تقع في ستة أبيات يقول فيها^(٣):

قد أغتدي والصبح محمراً الطَّـرُّ والليل تحدوه تباشير السَّحَرِ
وفي تواليه نجومٌ كالشَّرَرِ بسحقِ الميعة ميالِ العَذْرِ^(٤)
كأنه يومُ الرهان المحتضر طاوٍ غداً ينفضُ صبيان المطر^(٥)

(١) التنكيب: العدول عن الشيء، مستوفر الكعوب: وافيهما، والكعوب جمع كعب وهو كل مفصل للعظام.

(٢) الوحف: الشعر الكثير الأسود والجناح الكثير الريش الظُّهَار: بضم الظاء الجانب القصير من الريش عَصِل: الأنُوب: معوجة في صلابه، والأنُوب من القصب والأصح كعبها.

(٣) ديوان أبي نواس ص ٦٤٦ ط. الغزالي، ص ٢٣٠ أضاف.

(٤) سحق: طويل - الميعة: ناصية الفرس، العذر: جمع عذرة بالضم وهي الشعر على كاهل الفرس.

(٥) طاو: لم يأكل شيئاً، الصبيان: المنصب.

عن زف ملحاح بعيد المنكدّر أقنى يظل طيره على حدّر^(١)
يلذن منه تحت أفنان الشجر من صادق الوعد طروح بالنظر^(٢)
كأنما عيناه في وقبى حجر بين ماق لم تحرق بالإبر^(٣)
يلاحظ أن أبو نواس بدأ طرديته بمقدمة، جرياً على ما دأب عليه في طردياته الأخرى، فقد
غدا مبكراً في الصباح والليل لم تزل نجومه تتلألأ أضواؤها - على فرس طويل شعر الناصية، ومائل
شعر الهيكل ويمضي أبو نواس في تحديد معالم هذا الجواد فيشبهه يوم الرهان . . بجارح جائع
ينفض عنه حبات المطر الصبيب، مستطرداً إلى وصف عيني هذا الجارح، وصغار ريشه ونشاطه
فهو دائم الحركة، حتى إن الطيور من خشيته تتوارى عنه في الشجر.

فهذه الطردية إذن، لا تعدو كونها وصفاً لقوة الحصان وشدة عدوه، لأنها تكاد تخلو من معنى
الطرد الصحيح، الذي يعتمد على الطارد والمطروء، لأن الحصان وهو العنصر الأساسي والأول
فيها، لم يكن طارداً كذلك فإن هذه الطردية لم يكن لها تلك الخاتمة التقليدية المتضمنة مصرع
الطريدة لفقدانها منها . . !

أما الطردية الثانية التي أدارها أبو نواس حول الحصان فقد بدأها بمقدمة تقليدية أيضاً متحدثاً
عن تذكيره إلى الصيد والليل كالحبشي الذي خلع ملابسه فلا تبصر العين منه إلا سواده^(٤).

قد أغتدي والليل في إهابه أدعج ما جرد من خضابه
مدثر لم يبد من حجابيه كالحبشي أنسل من ثيابه
ثم يمضي إلى وصف فرسه، منوهاً بهيكله التام الخلق وهو جواد أصيل ينتمي في نسبه إلى
الأعوج فرس بني هلال، أما قوائمه فكانها قدت من شجر العقو، فهو سباق يسبق الجياد الأخرى،
وله هيكل متين البناء وعنق يتكابر به ويتعاضم، وأما حافره فصلب يحميه، عند الجري، من أفرانه:
بهيكَل قُوبِلَ في أنسابه مردّد الأعوج في أصلابه^(٥)

(١) الزف: بالكسر، صغار الريش والمراد بها هنا الشعر. والملحاح الدائم الحركة - المنكدّر: بفتح الدال موضع
الإنكدار أي الإسراع والانقضاض والانصباب والانتشار - والأقنى: المنحنى والمراد بطيره ذبابه.

(٢) يريد بأفنان الشجر خصل شعر الذيل لغزارتها.

(٣) الوقيان: مثني وقب وهو نقرة العين أو نقرة في الحجر يجتمع فيها الماء.

(٤) ديوان أبي نواس ص ٦٥٧ ط. الغزالي.

(٥) الهيكل: الفرس الطويل - قوبل: كرم نسبه - الأعوج: فرس لبني هلال تنسب إليه كرام الخيل.

يَهْدِيهِ مِثْلُ الْعُقُوفِي انْتِصَابِهِ وَكَاهِلٍ وَعَنْقٍ يَأْبَى بِهِ^(١)
يَصَافِحُ الدُّدَانَ مِنْ أَضْرَابِهِ بَوَاقٍ يَقِيهِ فِي أَنْسَابِهِ^(٢)
نَشَا الْمَطَارِيدَ، وَحَدَّ نَابِهِ حَتَّى إِذَا الصَّبَحَ بَدَأَ مِنْ بَابِهِ^(٣)

وبعد وصف قصير لولد النعام مشيراً إلى ضموره وسرعته وقطعه الأرض حزنها وسهولها، يعود أبو نواس مرة أخرى إلى الجواد واصفاً إياه بأنه متزمل بثيابه، ولشدة نشاطه يعاني فازسه، فقلنا له انزع عنه ثيابه، حتى إذا فعل بدا جسم الحصان كاللهال الذي بزغ من وراء السحاب، أو كالسيف الصقيل وقد استل من قرابه^(٤):

وَالطَّرْفُ قَدْ زَمَلَ فِي ثِيَابِهِ قَائِدُهُ مِنْ أَرْنٍ يَشْقِي بِهِ^(٥)
قَلْنَا لَهُ عَرَّهِ مِنْ أَسْلَابِهِ فَلَاحَ كَالْحَاجِبِ مِنْ سَحَابِهِ
أَوْ كَالصَّنِيعِ اسْتُلَّ مِنْ قِرَابِهِ فَسَدَّ الطَّرِيقَ وَمَا هَاهَا بِهِ^(٦)
ويختتم الطردية بأبيات أدارها حول مطاردة الظليم وصيدته:

فَانْصَاعَ كَالْأَجْدَلِ فِي انْصَابِهِ أَوْ كَالْحَرِيقِ فِي هَشِيمِ غَابِهِ^(٧)
مَلْتَهَباً يَسْتَنُ فِي التَّهَابِهِ كَأَنَّمَا الْبِيدَاءُ مِنْ نِهَابِهِ^(٨)
فَحَازَهُ بِالرَّمْحِ فِي أَعْجَابِهِ شَكَّ الْفَتَاةِ الدَّرَّ فِي أَحْزَابِهِ^(٩)

فهذا الحصان سد أمام الرأل محاولة الهرب، من غير زجر، بل أسرع خلفه لإسراع النار في الهشيم وانصب عليه انصباب الصقر على طريدته حتى كأنما البيداء ملك يده يتصرف فيها كيف

(١) يهديه: يجعله في أوائل الخيل والفاعل مثل. العقو: الشجر والعقوان خشبتان فيهما الحجور (انقاموس المحيط).

(٢) يصافح: يأخذ باليد والقصد يجاري - اللدان: جمع لدن وهو الطري اللين من كل شيء - الوقح: الحافر الصلب.

(٣) النشا: جمع نشاة وهي الشجرة الصلبة واستعارها هنا للقوائم.

(٤) ديوان أبي نواس ص ٦٥٨ ط. الغزالي.

(٥) الطرف: الكريم من الخيل - زمّل: لف - الأرن: النشاط.

(٦) الصنيع: السيف الصقيل. هاهنا: زجر.

(٧) انصاع: انفتل راجعاً. الأجدل: الصقر.

(٨) ملتهباً يستن: مسرعاً يقمص.

(٩) الإعجاب: جمع عجب وهو أصل الذنب.

شاء، وهكذا أدرك الفارس طريدته، فشكها بسنان رمحه في مؤخرة ظهرها كما تشك الفتاة الدر في سلكه...!

ويلاحظ أن هذه الطردية أقرب من سابقتها إلى معنى فن الطرد ومفهومه، ولكن يظل الحصان فيها ليس هو الطارد أو القانص، بل هو الوسيلة لإتمام عملية القنص.

وإذا كان أبو نواس اتخذ الجوارح والضواري وسائل للطرد والقنص وهي كائنات حية، طالما أقام الشعراء بينهم وبينها صلات وجدانية فإنه عمد في جملة من طردياته إلى بعض الوسائل الأخرى المادية من غير الجوارح والضواري مثل:

الفخ وقوس البندق والجلاهق التي أصبح لها في العصر العباسي مكانة مرموقة مع التقدم الحضاري في جميع جوانب الحياة ومنها آلة اللهو واللعب، كاللكرج التي كان الأمين مغرمًا بها أشد الغرام^(١). ومثل لعبة الشطرنج والنرد والرمي بالنشاب والصيد بالبندق ولعبة الجوكان والصولجان والجريد ولعبة الكريكت والتنس^(٢) وكانت تسمى لعبة «القراح» لذلك فليس غريباً أن تتطور وسائل الصيد في هذا العصر ومنها الصيد بقوس البندق، بما تتناسب مع مكانة من يزاولونه من عليّة القوم.

والبندق كرات صغيرة تصنع من الطين أو الرصاص ولقد ظهرت في أواخر عصر عثمان فاستنكرها الناس ثم ألفوها وصارت تستعمل في الصيد^(٣) يقول الجاحظ: (وكل قوس بندق فإنما جيء بقناتها من برّوص، ومدح ببريها وصنعتها عصفور القواس...)^(٤).

ويشرح لنا «الجواليقي» معنى البندق فيقول: الذي يرمى به الصبيان، وهو الطين المدور المدملق يرمى به عن القوس، فارسي وأصله بالفارسية جلاهة، الواحدة جلاهقة والاثنتان جلاهقتان...^(٥).

أما الطردية^(٦) فقد استهلها أبو نواس بوصف جو منطقة الصيد بالحديث عن الروضة حيث يكثر الصيد من الطيور، فهي روضة مكتظة بالأشجار، تتردد في جنباتها أصوات الطير المختلفة وكأنها

(١) تاريخ الطبري ٥٢٤/٨.

(٢) تاريخ الإسلام السياسي، لحسن إبراهيم حسن، ٢/ ٣٢٢-٣٢٤.

(٣) الصيد والطرد في الشعر العربي لعباس مصطفى الصالحي، ص ٢٣٦.

(٤) البيان والنبين، ٩٣/٣ ط. رابعة.

(٥) ديوان أبي نواس ص ٦٦٨ ط. الغزالي.

(٦) المعرب ص ١٤٤.

لغظ كتاب الدواوين وهم يسجلون حساباتهم ويقولون ثلاثة أربعة خمسة . ! ثم يمضي فيقول إنه وافى هذه الروضة مبكراً والشمس لم يذر لها قرن بعد ولا خرج مقررور للاستدفاء بأشعتها^(١):

وارفةً للطير في أرجائها كلغظ الكُتاب في استملائها
أشرفتها، والشمسُ في خرشائها لم يبرز المقرورُ لاصطلائها^(٢)
ثم يصف قوسه قائلاً إنها شظية شقت من الأشجار. بقاء الصائد ومكثه رهن ببقائها ومكثها أي آلة الصيد^(٣).

بشقةً طولك في إبقائها إذا انتحى النازعُ في انتحائها
وهي آلة صيد جيدة الصنع، قام ابن عصفور ببريها فإذا رمى بها القانص لا يخشى من تشقق في ظهرها أو لم يخف بجذبه لها أن يكسرها:

لم يهرب الفطورُ من سيسائها يعزى ابن عصفور إلى بُرائها^(٤)
ويستمر أبو نواس في حديثه عن هذه القوس مذ كانت عوداً ندياً، والقواس ينتظرها على مهل حتى جفت وصلبت واستوت قوساً جيدة.

حتّى تأناها إلى انتهائها واستوسق القشرُ على لحائها^(٥)
وشُمست فيست من مائها فالحسنُ والجودةُ من أسمائها^(٦)
ثم ينتقل إلى وصف البندق بعد هذا الإغراق المعجز في الغريب وكأن الشاعر قد قصد قصداً إليه، بل كأنه هو الهدف وهو الغاية، وهو إغراب واضح فيه الافتعال الشديد (وكانه مجبور على

(١) ديوان أبي نواس ص ٦٦٨ بتحقيق الغزالي.

(٢) الخرشاء: قشرة البيضة العليا.

(٣) (في طبعة فاغنر ٢٣٢/٢ وبغداد ص ٢٤٢ ورد صدر هذا البيت هكذا:

«بشقةً طولك في إبقائها». والشقة: شظية من لوح ومن العصا وغيرها ماشق مستطيلاً، طولك: بقاءك ومكثك. وهو يريد بذلك آلة الصيد.

(٤) غلبت هنا رواية الأصمعي ط. فاغنر، ورواية الصولي ط. بغداد في صدر هذا البيت. والفطور: التشقق،

السياسة: الظهر، فليس يخشى إذا جذبها أن تشق لجودتها. وابن عصفور قواس صديق لأبي نواس.

(٥) تأناها: تمهل عليها، استوسق القشر: اجتمع.

(٦) شمس: عرضت للشمس لتتخلص من مائها فتصلب وتشد.

أداء عمل مطلوب منه أداؤه فاجهد نفسه واتعب سجيته^(١). بل أجهدنا معه كثيراً واجهد مواهبنا الذوقية...!

أما البنادق فقد أحكم صنعها من طين متماسك لم تخالطه الرمال، فهي سواء في الجودة، بعيدة المرمى فتصيب الطير مهما علا:

ثم ابتدنا الطيرَ في اعتلائها بنادقاً تعجبُ لاستوائها^(٢)
من طينةٍ لم تدُنْ من غُضرائها ولم يخالطها نقاً ميثائها^(٣)
لا تحوِّجُ الرامي إلى انتقائها فهي تُراقِي الطيرَ في ارتقائها^(٤)

وأخيراً يأتي وصف الصيد، فيقول إن هذه القوس إذا أطلقت بنادقها تنلطي كالنار فتطيح بالطير بمختلف ألوانه وأنواعه إلى الأرض مصرعة ممزقة الأحشاء:

مثلَ تلطَّى النارِ في التظائها من سُود أعجازٍ ومن رَهائها^(٥)
طراحةٌ للحوث من جَرَبائها مرثومةٌ الخطم بطينِ مائها^(٦)
ترفل^(٧) في نعلين من أمعائها يحطها للأرض من سمائها

وفي ختام هذا الفصل من الحديث عن الطرد عند أبي نواس لا يفوتنا أن نتوقف عند طردية لعلها ذكرت مجازاً في باب الطرد من ديوان الشاعر، وهي تلك الرجزية التي أدارها أبو نواس حول اللعب بالصوالجة، ذكر حمزة الأصفهاني^(٨) (عن محمد بن عبدالله بن المغيرة قال: خرج أبو نواس يوماً مع العباس بن موسى الهادي إلى عيسا باذ فوجد في الميدان زهير بن المسيب بن زهير

(١) الشعر والشعراء في العصر العباسي للشكعة ص ٣١١.

(٢) البنادق: الذي يرمى به الواحدة بندقة.

(٣) الغضراء: الأرض فيها طين حر، نقاميثائها: النقا القطعة من الرمل، الميثاء: الأرض السهلة.

(٤) تراقى الطير: ترتفع معها.

(٥) رهائها: الرهاء كسماء الواسع.

(٦) الجرباء: السماء أو الناحية التي يدور فيها فلك الشمس والقمر، مرثومة الخطم: مكسورته وعليه دم لطح به كذلك.

(٧) ترفل: تسير.

(٨) ديوان أبي نواس، ٢/ ٢٥٧ بتحقيق فاغتر.

والصقر بن مالك الخزاعي يلعبان بالصوالجة فدخل مع القوم فصاروا حزبين فغلبهم، ثم أكل معهم وشرب فلما طرب قال هذه الأرجوزة. وقال يصف الطبطاب (١) ونبت فيما يلي الأرجوزة (٢) :

قد أشهد اللهو بفتيان غُرِرَ
ومن بني قحطان والحيِّ مُضَرَّ
زَيْنَ حَسَنَ وجهه طيبُ الخبر
من كُلِّ طَرَفٍ أعوجيٍّ (٣) قد ضَمَرَّ
جَنُّ على جنِّ وإن كانوا بشرَ
أو سُمِرَ الفارس فيها فانسمر
مكَلَلاتٍ بيهاٍ وزهرَ
إذ ذر قرْنُ الشمس في غِبِّ مطرٍ
مَحْنِيَّةٍ أطرافها فيها زورَ
فلم يَعبَ طولاً ولا سَوانَ قِصَرُ
مدمجة الأركانِ ملساءِ الطُرُ
أحكمها صانعها لما فطرَ
فليس للإشفاء بالجلدِ أثرُ
حتى إذا ما أغلق القومُ الخطرَ

من ولد العباس سادات البشر
من كل مألوف كريم المعتصر (٤)
على جيادِ كتمائيلِ الصورِ
لم يكوه البيطارُ من داءِ الحَمَرِ (٥)
كأنما خيطوا عليها بالإبر
بين رياضٍ مثلِ موشيِّ الحبرِ
فانتدبوا في يومٍ قُرٍّ وخَصَرُ
صوالجا يصبُّو إليها من نظَرِ
قَدَرها شابرُها لما شَبَر (٦)
وقد تنادوا فتراموا بالأكر (٧)
شدَّد صَفَقي متنها حَشوُ الشَّعر (٨)
ألطف بالاشفاء خَرزاً إذ دَسَر (٩)
يُحَسِّبَنَ تفاحاً تذلَّى من شَجَرِ
ووكَّلوا بالبَزِّ مقداماً ذَكَر (١٠)

(١) الطبطابة: خشبة عريضة يلعب بها بالكرة. والطبطاب طائر له أذنان كبيرتان (القاموس المحيط). ويذكر فيليب

حتى ٤١٦/٢ أن لعبة الطبطاب قد تكون هي لعبة التنس.

(٢) ديوان أبي نواس ٢٥٦/٢، ٢٥٧ بتحقيق فاجتر.

(٣) كريم المعتصر: جواد عند السؤال.

(٤) الأعوجي: نسبة إلى أعوج فرس كان لبني هلال تنسب إليه الأعوجيات.

(٥) الحَمَر: بفتح الحاء - داء يعتري الدواب من كثرة أكل الشعير فتنتن أفواهها.

(٦) الزور بالتحريك: الميل.

(٧) الأكر: جمع أكرة، وهي لغة في الكرة.

(٨) الصفقان: مثني صفق وهو الجانب.

(٩) الاشفاء: بالمد للضرورة - مثقب يخرز به الجلد - ودمر: أدخل الأشفى في الجلد، وفطر: شق.

(١٠) البز: الغلبة والقهر.

مُجَرَّباً يَوْمَ الرِّهَانِ الْمُحْتَضَرُ
وَلَمْ يَجُرْ فِيهِمْ وَلَا الْعَيْنُ فَتَرُ
بَكْرَةً دَحَابَهَا ثُمَّ زَجَرُ
رَفْعاً وَوَضْعاً أَيُّمَا ذَاكَ اسْتَقَرُ
تَدَافَعُ النَّبِلُ بِإِزْعَاجِ الْوَتَرُ
إِذَا أَجَادَ الضَّرْبَ فَذَى وَنَعَرُ
وَكَتَابَتْ نَفْسُ الَّذِي خَافَ الْغَيْرُ
حَتَّى يَفُوزَ بِالرِّهَانِ مِنْ قَمَرُ
فَضْلُهُ حِذْقُ وَضَرْبُ مُشْتَهَرُ
وَاسْتَقْدَمَ الْقَوْمَ رَئِيسُ ذُو خَطَرُ
فَانْحَدَرَتْ كَالنَّجْمِ وَلَى فَاكَدَرُ
تُدْفَعُ بِالضَّرْبِ إِذَا الضَّرْبُ اسْتَمَرُ
فَكَمْ تَرَى فِيهِمْ حَلِيباً ذَا وَقَرُ
وَعَطَعَطَ الْمَرْءُ الَّذِي يَرْجُو الظُّفَرُ^(١)
وَأَيَقِنُوا أَنْ قَدْ عَلَاهُمْ وَقَهَرُ
يُسَاءُ هَذَاكَ وَهَذَاكَ يُسَرُ
كَذَلِكَ الدَّهْرُ وَتَصْرِيفُ الْقَدَرُ

وهنا لا بد من الإشارة إلى أن لعبة الصوالجة التي تدور حولها أرجوزة أبي نواس من الألعاب التي كان العباسيون يزاولونها خارج المنازل^(٢). وفي هذه اللعبة يتساوى الملك مع بطانته من غير نقص عليه ولا ضعة في ملكه^(٣).

هذا ويعود الفضل إلى المرحوم زكي مبارك الذي نبه إلى هذه الأرجوزة وما فيها من معان جميلة حين حاول أن يقارن بينها وبين أرجوزة لأحد الشعراء المحدثين أدارها أيضاً حول لعبة كرة القدم^(٤).

أول ما يترأى لنا في أرجوزة أبي نواس ابتعادها عن الغريب مع عذوبة في اللفظ وسلاسة في الأسلوب، في حين كانت أراجيز طردياته موغلة في الغريب، كذلك فإن هذه الأرجوزة خالية من أي معنى من معاني الصيد والطرْد بمفهومهما التقليدي، مع أن المباراة التي أدارها أبو نواس بين فريقين من الأصدقاء يشارك فيها هو، انتهت بظفر أحدهما، ولكن من غير دماء سفكت بل أعقب اللعب الطعام والشراب والطرب. ولكن أبا نواس استطاع أن يخرج لنا من نتيجة تفوق أحد الفريقين، وهزيمة الفريق الآخر بحكمة ساقها إلينا في ثوب من النظم الرقيق، كقوله وهو يصف فرحة الغالب، وكتابة المهزوم:

إِذَا أَجَادَ الضَّرْبَ فَذَى وَنَعَرُ
وَعَطَعَطَ الْمَرْءُ الَّذِي يَرْجُو الظُّفَرُ

(١) عطعط: صاح.

(٢) تاريخ العرب (مطول) لحتى ٤١٦/٢.

(٣) التاج. للمجاحظ، ص ٨٠.

(٤) الموازنة بين الشعراء، لزكي مبارك، ص ٣٣٠.

واكتأبت نفسُ الذي خاف الغيِّرَ وأيقنوا أن قد علاهم وقهرُ
حتى يفوز بالرهان من قمرٍ يُساءُ هناك . وهناك يُسرُ
كذلك الدهر وتصرف القدرُ

وتبقى ثلاثة جوانب من هذه الأرجوزة لا بد من التنويه بها أجاد أبو نواس وصفها من غير أن
يبعد عن المعاني والمباني التي سلكها في طردياته الأخرى:

أولها: وصفه للسادة «الفتيان الغرر» الذين اشتركوا في اللعب، فهم ما بين عباسي من سادة
البشر، وقحطاني أو مضري مشهور بجوده وكريم عنصره:

قد أشهد اللهو بفتيانٍ غررَ من ولد العباس سادات البشرِ
ومن بني قحطان والحي مضر من كل مألوف كريم المعتصرِ
زَيْن حسن وجهه طيب الخبر على جياذ كتمائل الصورِ
الثاني: إن اللعب دار والفتيان الغرر ثابتون على ظهور الجياذ، ويصفهم أبو نواس بأنهم جن
فوق جن قد سمروا على تلك الجياذ فلا سبيل لرحلتهم عن كواهلها:

من كُلِّ طَرْفٍ أعوجيٌّ قد ضمِر لم يكوه البيطارُ من داء الحَمَرِ
جنُّ على جنٍ وإن كانوا بشرُ كأنما خيطوا عليها بالإبرِ
أو سُمر الفارس فيها فانسمر بين رياضٍ مثل موشيٍّ للسحبرِ
الثالث: هذا الوصف البديع للكرة ومهارة صانعها، حتى لا يكاد يبين أثر للخرز فبدت كأنها
التفاح تدلى من الشجر:

محنةٌ أطرافها فيها زورُ قدرها شابرُها لما شَبَرُ
فلم يعبَ طولاً ولا شانَ قِصرُ وقد تنادوا فتراموا بالأكرُ
مدمجة الأركان ملساء الطُرُ شدّد صَفْقِيّ متنها حَشُو الشَّعرِ
أحكمها صانعُها لما فطرُ ألطف بالأشفاء خَرَزاً إذ دَسَرُ
فليس للإشفاء بالجلد أثرُ يُحَسِّبَنَ تفاحاً تدلّى من شَجَرُ

ويلاحظ من هذا العرض لأهم ما تضمنته هذه الأرجوزة العجيبة، إنها إذا كانت تجوس خلال
المجال الذي انبثقت عنه الطرديات، إلا أنها مثلت تطوراً واضحاً بالأراجيز الطردية من شعر

بدوي^(١) إلى شعر حضري، بالرغم من اتخاذها بحر الرجز شكلاً، والفكرية العامة التي تقوم عليها الطردية التقليدية منهجاً...!

ولعله قد اتضح لنا بعد هذا العرض لطرديات أبي نواس أن شاعرنا في طردياته أكثر ما يكون التزاماً بالثوابت الفنية التي استمرت، كذلك فقد حفلت هذه الطرديات بجم وافر من الألفاظ الغريبة كما لم يحفل فن آخر من فنونه التقليدية، هذا إلى دلالة هذه الطرديات على معرفة الشاعر الواسعة بجوارح الصيد وضواريه خاصة الكلب منها، وعلى خبرة بأحوال البادية المعيشية والاجتماعية، وأيضاً دلت هذه الطرديات على عناية الطبقة المترفة في المجتمع العباسي بالصيد كإحدى الوسائل الترفيهية الكثيرة حينئذ لما يتكلف الصائد من آلات ومن جوارح وضوار وخيول، ولذلك ارتبط الصيد لدى المترفين بالسخاء لما يتطلبه من نفقات باهظة.

وأيضاً فقد كشفت هذه الطرديات عن ملكة في الوصف عند أبي نواس جعلت من فن الطرد يقف في محاذاة فن الخمر من حيث قدرة الشاعر على التصوير والتمثيل.

(١) تاريخ الأدب العربية، لثنيو، ص ١٩٣.